

حازم يعود هذا المساء
(حكاية سيزيف الفلسطيني)
رواية

نبيل عودة

افتتاحية المؤلف

هل يكتمل الحب بلا وطن؟
وتكتمل الآمال بلا بيت؟
وتكتمل الأحلام بلا ملاعب الطفولة؟
ويجد الانسان غايته، بعيداً
عن عرائش صباه؟!
ويتمتع بالراحة، في مجتمع
القيمون عليه لصوص!؟

هل تسمى حياة، هذه الملعونة
أمام خرائب شعبنا،
بظلال تاريخنا المهدم ...
وحاضرنا المنفي ...
وثقافتنا المصلوبة بين اللصوص،
وحضارتنا المسروقة ...
ودمنا النازف باستمرار!!؟!

اذن ...
ما هو الحب!؟
وما هي الحياة!؟

هل يوجد حب

بلا وطن..؟!

هل توجد حياة

بلا وطن ..؟!

حازم يعود هذا المساء

(حكاية سيزيف الفلسطيني)

تجلى امام عيني بلا سابق توقع. انبثق وبرز من حيث لا أدري. رؤيته فاجأتني. وقفت مشدوها مستنفرا ما استطعت عليه من حواسي، للتأكد من حقيقة ظهوره.

لوهلة أكاد اكذب عيني. لا أدري ما يجري حولي. ربما لم استوعب حقيقة ظهوره؟! مسألة لم تخطر على البال. أقرب للمعجزات. ما أصعب تصديق رؤيته. فجأة ينجلي أمام عيني. هكذا بلا توقع. كصفعة فجائية تركتني مذهولا عاجزا عن الفهم والادراك.

كان التفكير بلفائه، منذ غادر... نوعا من العبث. ولكن ها هو أمامي! بصورته التي أعرفها. بكيانه المميز. أنفوس به بذهول، بحيرة. أراه ولا أصدق، أنفوس بوجهه المليء المكتنز، بوجنتيه البادنتين بالترهل، بقامته المتوسطة الطول، المليئة تماما، بحركاته الرصينة... هو ولا أصدق. متى عاد؟ وكيف؟! وهل تجوز عودته؟! يقبلها المنطق؟! أنفض الاسئلة من ذهني وأواصل تفرسي به بفقدان القدرة على الفهم...

ذكراه كانت دائما في البال، ولكن منذ غادر، أيقنت ان ما بيننا انتهى، لا شيء الا ذكرى طيبة عن أيام لا تنسى، نستعيد أحداثها بحماس وشغف، غير مبالين من فقدان بعض التفاصيل والهوامش، فحماس الذكرى يكمل ما نقص... ثم ها هو يصعقني بظهوره!!

يفاجئني!!

وقفت مذهولا أمام حقيقة ظهوره. يتناثر المنطق ويفر مهزوما أمام تجليه الذي لا شك فيه. أواصل وقوفي مرتعشا ومتفرسا به، بوجهه، بقامته، بحركاته، به كله. هو؟ ليس هو؟! كانت المفاجأة مزدوجة، اللقاء بحد ذاته، ولفاؤه هو بالذات، بعد أن غادرنا للأبد كما كان واضحا!!

غادرنا؟!

لكنه عاد. ها هو مجسم أمامي. حقيقة لا جدال فيها. نفس الحركات، والقامة ذاتها بالكرش المندفع للأمام. هل هو نوع من المستحيل؟! من اللامنطق؟! من الوهم؟! ام هو حلم عابر؟! نزوة طارئة؟! شطحة ذهنية؟!

لا أدري ... غير ان ما يحدث مثبت بالرؤية، فهل أكذب نفسي؟! أغالط عيني؟! أنكر حواسي؟! أنتازل عن يقيني؟! أتخبط؟! حيرتني نفسي وتراكم ذهولي، واشتدت هواجسي. احترت.

كان الوقت قبل الظهر. هذا اذكره تماما. ولا أدري ان كان لذلك قيمة ما. كنت عائدا من السوق ببعض أكياس الخضار والفاكهة. على الاغلب كنت لوحدي، فما علق بذاكرتي لا يشملني الا انا وهو. انا في جهة ... وهو في جهة اخرى، وما يحيطني وما يحيطه، لم يعلق بذهني منه شيء، ظهر بلا سابق توقع. مفاجأتي به كانت تامة، استحوذت على حواسي، صعقتني. أربكتني. فجرت مئات التساؤلات في ذهني، دخلت لأعماق نفسي حائرا. ولم أستوعب الا حقيقة واحدة ... أنى أفق بمواجهته، أنا هنا وهو هناك ... انظر اليه بلهفة مأخوذاً من المفاجأة،

أستعيد في ذهني صورته. بوجهه غير القابل للنسيان، بذكراه التي تثير الحسرة والشوق، والحنين الجارف لأيام مضت. هو بلا أدنى شك، ملامحه نفس الملامح المطبوعة في ذاكرتي، وقفته ... حركاته ... كل شيء يطابق الأصل.

كنا وكان، كانت ايام وليال، وبقيت احداث لا تغيب عن البال ابدأ، تتردد باستمرار، متوهجة كأنها حدثت أمس، لكنها عبة خافقة حياة وحيوية، كأنه لا ماض يبعدها عنها، أو يبعده عنا.

تواصلت حيرتي وتراكم عدم يقيني، وتهت بين مبتدأ الأشياء وخبرها، فقدت اتجاها وانا قبالتة، وربما فقدت القدرة على إدراك حالي. انفصلت عما يحيطني من اشياء. انظر اليه بين مصدق ومكذب لما اراه. هو نفسه !! اخيراً عاد؟! كيف تمت عودته؟! ومتى تحقق هذا الاعجاز؟ تتشابك وتتعثر الأسئلة. ها هو بوقفته المعتادة ... دافشاً كرشه الضخم امامه ... صدره منفوخ بعض الشيء بأبهة طيبة. قسماته هادئة لا تعبر عن شيء. حيرني اللا تعبير الواضح. ربما يفكر بأمر ما؟! قلق من وحدته. وهو الذي اعتاد الجلسات الصاخبة؟! او يكون مخبولاً من طول الغياب؟! ربما أثر فيه السكون الأزلي، وهو العاصفة التي لا تهدأ، المندفع بحيوية، متأجج العاطفة، المتألق دوماً بحديثه وأفكاره ومظهره؟!!

أحقا عاد؟!!

تناول شيئاً وجلس، كانت أمامه كأس مترعة، وبعض صحن المازة. هذا مؤكد بالرؤية.

طويلاً نظرت اليه، متوقعا ان ينتبه لي، ان تفاجئه رؤيتي، فيسرع فرحا لملاقاتي ومعانقتي، بعد هذا الزمن الطويل ... بعد هذا الغياب الطويل.

او يكون ما اراه اضغاث احلام؟ او هام عابرة؟ تخيلات عقيمة؟؟

ابعدتنا الايام في اتجاهات لا تتلاقى، وها هي تجمعنا بلحظة مجنونة لا تفسير لها، لحظة مجردة من المنطق. عسية على الفهم. اكاد لا اصدق نظراتي. انظر اليه وقلبي يخفق بشدة. ربما توجسا من خداع الرؤية. او من سراب الم بي؟! وهم قريب من التجسد؟ ما بالي اخرف؟ هل اكذب نظراتي؟ اكذب يقيني؟ أنكر وعيي؟ لم نعد في عصر العجائب انما في عصر العقل، فأني عقل يستوعب ما ارى؟! اي عقل يفسر غرائب ما يحدث لي؟ اعترف أني أقف في مواجهته عاجزا عن الفهم والتقدير مشلول القدرة عن تفسير ما انا به. أتخبط وأتوه وراء مشاعري. أخط بين اليقين والوهم. ما هو اليقين عند الانسان؟ انها ذات الانسان نفسه، فهل اكذب نفسي؟ اكذب ذاتي؟ أنكر يقيني؟!!

منذ متى لم اراه؟!!

منذ متى لم تجمعنا جلساتنا الممتدة حتى آخر الليل؟ ربما عقد كامل، اطول قليلا او اقل قليلا، ولكنه يبدو زمن طويل، شديد الطول. يهيا لي انه اطول من حياة انسان. ربما بعمر عدة اجيال، فزخم ما عشناه، أكثر من ان تستوعبه حياة واحدة، واقول لنفسي: " ان ما يبعد بيننا لا شيء بمقياس عمر الزمن ". فلماذا لا تحركه رؤيتي كما تحركني رؤيته؟! لا يفعل ولا يبدو عليه التأثير، يستمر بالصمت والحركات التي تبدو محسوبة، وانا قبالتة الوح له عبثا !

كان بيته منتدانا ومركز سمرنا، لا نفوت ليلة الا ونتجمع عنده ... بموعد او بلا موعد، كأمواج البحر، لا بد لها من شاطئ تصله. او نكون على اتفاق مسبق للقاء في بيت أهدنا. تجمعنا لا بد منه. صرنا نعيش يومنا من اجل اللقاء مساء. صارت اللقاءات محور حياتنا، ومهما تمضي السنون، سنبقى تلك الايام متجلية في ذهني، بزخمها وحيويتها، بروفقها وحرارتها الانسانية، وكلما يبتعد بي الزمن، يشتد شوقي لتلك الايام. بفرحها الذي لا يعرف نهاية، بانطلاقتها التي لا يدركها الوهن.

كم اختلفنا واتفقنا، نتناقش، نتحاج، نصرخ. نصمت. نصر. نخي. ثم نضرب كؤوسنا المترعة، بكؤوس بعض، ونشرب نخب تجمعنا وصحبتنا وصمتنا وسعادتنا.

اتعود تلك الايام؟! ايعود ذلك الفرح؟!!

كان حجة في الحديث، يتقن الرواية. بل هو راويتنا بلا منازع. يخيل لي أنى لم التق بمتحدث – راو في مثل موهبته وقدرته على الحفظ، فهو مثقف واسع الثقافة والاطلاع، ومجتهد في استنتاجاته وتحليلاته، لا يستسلم امام ما يبدو لنا طلاسماً، سريع الخاطر، باهر البديهة، مرهف الحس، له منطق لا يهزم بسهولة ويعرف كيف يسوق الحجج والبراهين والامثلة والسوابق.

ما باله ينظر نحوي ولا يحرك ساكناً؟! ربما لم يعرفني، مع أنى لم اتغير شكلاً. أيجوز أنى لم انتبه لتراكم التغييرات الصغيرة والبطيئة. فانا يخيل لي احياناً أنى لم اتغير جسمانيا منذ ربع قرن، اما هو فلم يتغير فيه شيء كأنه لم يفارقنا الا لأمسية واحدة، ها هو امامي كما عرفته دائماً. الوح له بيدي. ينظر باتجاهي. هل حقاً ينظر باتجاهي؟! ام ينظر الى لا شيء؟!!

كان صوته جهورياً نقياً، تعلم في صغره – يوم كانت يافا مدينة عظيمة، يتدفق اسمها عبر الموانئ، لكل اصقاع الارض، كعلامة مميزة للبرتقال الجيد، وقبل ان تهب عليها العاصفة الهوجاء اللعينة – تعلم تجويد القرآن فحفظه وجوده بطلاقة، فكان يتحف جلساتنا بصوته الرخيم الجميل. مجوداً ما تيسر له من آيات كرام، يسحرنا بجمال اللغة وقوة البيان، ونفاوة الصوت، فنتمنى ان لا تنتهي جلساتنا، رغم يقيننا المطلق، اننا على موعد بلقاء جديد متكرر ... فنوغل في الليل، او يوغل الليل فينا غير دارين من امر الزمن شيئاً. مسحورين بجونا البديع، وبشملنا المجموع على مسامرتة، موغلين بالسعادة بأنانيه متجردين عن كل ما يقلق راحتنا، وما ينهي هدوء بالنا، وما يخرجننا عن اطوارنا.

ما باله ينظر الي ولا يحرك ساكناً، اهتف باسمه بلا صوت، ارفع يدي بإشارة السلام، وعينا يترصدان حركات وجهه، حركات يديه، اتجاهات نظراته.

في ليالينا وسهراتنا كان ينطلق احياناً ... مغنياً بعض ادوار عبد المطلب، او عبد الوهاب، او ام كلثوم مفسراً بأستاذية، الطبقات الصوتية واصولها. مشيراً للأبداع وقصور المغنين، في هذه الطبقة الصوتية او تلك، او نصمت مستمعين الى سيمفونية، وكأن على رؤوسنا الطير، وحقيقة تقال، انه يفهم بالموسيقى الكلاسيكية، كما يفهم بتجويد القرآن وبالموسيقى العربية، فهو يذكر عشرات الالحان الكلاسيكية ومؤلفيها وبعض مقاطعها، ومناسبة تأليف كل لحن، وتركيبته بحيث يجعلك تتلمس ادق الاحاسيس واجلى المشاعر، التي تتوهج بها المقطوعة الموسيقية المعينة، مما يسهل فهمنا لهذا اللون الذي كان، حقيقة ... بعيداً عن جونا وميولنا وثقافتنا، وكان " البوليرو " لرافل، و "الدانوب الازرق " ليوهان شتراوس، هما اللحنان اللذان لا ينفك يصفرهما خلال نهاره ، متلذذاً ، غارقاً في نفسه وعمله .

كان يعطينا من اعماقه، نافذة اوسع لعالمنا، وشمولية شاسعة للفنون والثقافات، لا تزال متجلية في نفسي ونفوس بقية الاصحاب.

كان يعشق الادب بحديثه وقديمه، ويحفظ مقاطع مختارة ونوادير طريفة .. له ذاكرة ممتازة، وكثيراً ما اعاد على مسامعنا مقاطع لا يزال يحفظها منذ ايام شبابه المبكر. ويحفظ نوادر الادب القديم ويعرف كيف يرويها، جاليا بأسلوبه الفذ، أجمل معانيها، فيبهرنا ويفتح اعيننا على كنوز لا حصر لها.

وماذا لا اذكر عنه؟! ولكنه يصدمني بنظراته التي لا معنى لها! يراني؟! بلا أدنى شك!! يعرفني؟! الوح له بيدي مرات متكررة، يثيرني ويقلقني بصمته وانطوائه غير المفهومين. اردت ان اصيح به " انا هنا " ولكن نظراته الباردة الموجهة نحوي اصمتتني.

ما الذي اعاده ان لم يكن حنينه الجارف للأصحاب ولأحلى الاوقات؟!!

اتذكر نهمه وحبه للطعام، وتفننه في تحضيره. والحق يقال انه سيد المطبخ بلا منازع ... فاذا وضع يده على شيء. يجعله يؤكل حالاً، وهذه مسألة لا نقاش حولها، بحكم كوني أحب الطعام مثله، ولكنني أعجز عن مجاراته في الكميات، وكثيراً ما قال لي بحماس وتأکید:

- انت احسنهم، كل !!

ويقول لبقية الاصحاب:

- الطعام متعه يا كارهي المتع . تعلموا منه ومدوا ايديكم. انا أكره الذي لا يأكل.

اما اسوأ صفاته فهي صفة الافراط في الشرب. لا يعرف لشربه حدوداً، وكل الاوقات مناسبة لديه للشرب. لا فرق بين صباح ومساءً، احياناً يجعلك تشعر انه لا يشرب بهدف الترفيه والمتعة والمسامرة، وانما لان هناك عدوا ينتقم منه. كيف؟! لا أدري !! نحاول بالآلاف الحجج ان نضع حداً لافراطه فيغلبنا ويجعلنا نفرط مثله، وها هو يعود وحنينه للكأس اقوى من كل حنين. يشرب ولا ينتبه لي او انتبه ولم يعرفني. ربما يدندن لنفسه بلحن ما، ها هو يرفع الكاس لشفثيه. يشم الخمرة مستمتعا قبل ان يرشفها.

لم نكن نستطيع ان نجاريه بالكميات التي يشربها، فهو إذا ما يسيطر دافع الشرب عليه، ومتى لم يسيطر؟! يشرب كل ما تطوله يده من اصناف الخمرة. بأبيضها وأحمرها !!

كان بيته منتدانا كما قلت. وكان اخا لنا، صديقاً، وحبیباً، سندیانة ضاربة جذورها عميقاً في قلوبنا، لا بد لنا من المرور به يومياً. نتجمع بأغراضنا، ونمد الطاولة، بكل المجازات التي تخطر على بال، بل بكل ما يصلح للأكل!

كان اخوه، شريكه الوحيد في بيته، صيادا هاوياً، يصيد ولا يأكل، يمارس الصيد كنوع من الرياضة كما يبدو فكان يزودنا بكميات كبيرة من السمك، كنا ننظف احياناً فرشاً كاملاً ... وكان صاحبنا يتحفنا بمعرفته لكل انواع السمك، وكيف لا، وهو ابن بحر يافا؟! وبسببه، اكتشفت ان الذمأكولات الارض واطيبها هو السمك بلا منازع !!

بدأ اليأس يعتريني من تجاهله لي. احترت واشتدت حيرتي، وبدأت اشعر بثقل الوقت. ضايقتني وضعي، واقفا قبائلته كالأبله مصعوقاً من ظهوره ... وهو ينظر الي ببرود او ربما لا ينظر الي؟!!

كانت جماعتنا تضم تشكيلة من الاصدقاء مختلفي الاتجاهات والميول. فالهندسي والأكاديمي والدهان والاديب المحترف وشاعر العامية والمغني وانا العبد لله.

وبالطبع صديقنا ... سندیانينا.

كان الوقت يمر ثقيلاً كنيبا وانا أقف في مواجهة نظراته عله يعرفني، كنت متحمساً لمعايقته، يشدني الشوق لجلساته وأحاديثه وموسيقاه.

يراني؟ ...

لا يراني ...؟

لست أدري !!

كنت وما زال مصعوقاً من رؤيته. ظهوره قلب كل مفاهيمي. هز روتين حياتي. فيقيني انه لن يعود تلاشى بلحظات، وايماني غير المفهوم الان، بأن من يذهب لا يعود، يتبدد !!

كان الموقف يزداد تشابكا بين المنطق السليم وحقيقة ما يجري. بكيناه يوم ودعناه، وأيقنا ان أجمل ايام العمر انتهت بوداعه، وتحولت جلساتنا الى واجب ممل بعده، كآبة وانتظار لفرج لا يأتي، ثم بدأنا بالتفرق والتشردم وأبقى الواحد بالكاد على علاقة بشخص اخر ... وتحولت صداقتنا الى رصيد غير مستعمل ... نلتقي بحرارة لتبادل تحيات عابرة. ويمضي كل في سبيله. صحيح ان ذكراه بقيت في اذهاننا، في وجداننا، في حرارة اللقاء بيننا، ولكنها ذكرى لشيء جميل غادرنا. تلاشى من حياتنا. فقدناه. هل حقا فقدناه؟! ذهب ولن يعود؟! ووجهه المطبوع في ذهني؟ وقامته المعروفة والمشهورة بكرشه المدفوع للأمام؟! ووقفته، نفس الوقفة التي يتجلى فيها الان ... والكاس بيد والسيجارة " الجيتان " باليد الاخرى.

كان يقول مشيرا الى سيجارته:

- هذه حارة تماما كما لو انها عجرية بالفعل !! (جيتان تعني عجرية).

حتى سيجارته تؤكد انه هو نفسه. لماذا يصمت هذا الصمت في مواجهتي؟! ويبدو غارقا بنفسه بذهول غير مفهوم؟!!

يراني؟!!

ربما يراني، ولكنه لا يحرك ساكنا.

ترى هل استبد به السكر؟ ربما يشرب منذ زمن؟!!

آه يا صاحبي القديم ... لا بد من شيء غير عادي في الموضوع. انت نفسك ولست انت. وجهك البادئ بالترهل. ولكنه غريب بلا حيويته. أهى الخمر؟! ولكن السكر لم ينسك اصحابك مرة. كنا نحن عائلتك وديناك ... لا تطيب لك الحياة بدوننا، ولا تطيب لنا الحياة بدونك.

اشرت له بيدي شاعرا بكابوس يأس وضيق، اردت ان اناديه .. ان أعلن عن نفسي بطريقة حاسمة، ولكنه لاه عني بكأسه وسيجارته، وبيعض المكسرات المألحة امامه.

صامت. مدد من الصمت يحيطه. ربما يفكر. يحزنه ما يراه بعد هذه الغيبة الطويلة. بحث عن صحبه فلم يجد منهم احدا حوله. وهو الذي اعتاد ان لا يجلس بلا صاحب.

يبدو كئيبا شديد الكآبة، لدرجة تشغله كآبته عما حوله. شدة صمته وجموده تجعله يبدو كلوحة مؤطرة ... رغم انه يتحرك. اللوحة الجيدة ايضا ملأى بالحيوية والحركة، ولكنه يتحرك بلا حيوية، يؤلمني ما به. يرفع كأسه لشفتيه. يقبل الكأس؟! ... يبلع بلعة ... يأخذ نفسا عميقا من عجريته. ويطلق الدخان بتلذذ وبطء، ثم يلتقط بضع حبات من المكسرات ويلتهمها ... نفس الرغبة بالأكل والتلذذ به. اما حيويته فمفقودة. لا اراها. لا المسها. يبدو غريبا بدونها ...!! رغبته الجلية بالأكل والتلذذ به جعلتني ازداد انتباها له تيقنا منه. وازدادت رغبتي لإثارة انتباهه لي.

اعتراني حماس شديد وانا اتخيل نفسي أخبر الاصدقاء بالمفاجأة. مفاجأة ظهوره المذهلة. عودته مخالفا كل منطق.

وما يهمني المنطق امام الحقيقة المتجلية؟

سأرفع تلفونا لكل الاصحاب. افاجئهم وأبشرهم بعودة سنديانينا.

- الو ... سهيل ... لقد عاد ... اليوم رأيتَه ... اقسم أنى رأيتَه.

سيفاجأ اولا بصوتي ونبرتي. لن يفهم ما اعنيه والا ذهب حلاوة المفاجأة. وتقريبا اتوقع جوابه:

- نبيل ماذا جرى لك؟! منذ فترة طويلة لم ارك، وتتصل لتقول لي كلاما غير مفهوم؟!!

- حازم ... حازم بلحمه ودمه. اليوم رأيتك. التقيته فجأة. شيء لا يصدق. لا تسألني. اترك المنطق جانبا. اتكلم عن رؤية بأب العين. لا تصدق؟! أنا ايضا لا اصدق. نلتقي عنده مساء !!

واقفل السماعه، ليصعق بالخبر والمفاجأة. لن يصدق حتى حازم بعينية. تماما كما اراه امامي. ليهرش ذقنه مفكرا حائرا. ليتحرك عن مقعده باحثا عن صاحبنا. لينقل الخبر لكل الاحباب والمعارف ...

- الو ... فوزي؟!!

وكالعاده ترد زوجته ...

- من يريده؟!!

- انت سكرتيرته ... منذ متى لديه سكرتيرة ...؟!!

- نبيل؟!!

- نفسه .. يا خبيرة بالأصوات. أين فوزي؟! سلامات يا اسمر يا عرييد، لماذا لا ترد على التلفون بنفسك ... عندي خبر مفاجأة ... اصمت واسمعي للأخر، اليوم التقيته صدفة. وجدته امامي. كان يشرب كاسا عند منصور !! ... عرفت من؟! ... يدخن سيجارة جيتان ... بتلذذ وكأنه بوصال مع غجرية حقيقية. لا تصدق؟! انا رأيتك ولم اصدق. اسمع بلا مقاطعه ... اترك المنطق برعاية زوجتك. هل عودك جاهز؟! مساء نلتقي عنده !!

واقفل السماعه !! واتصل مع الاخرين:

- جميل؟! ... سلامات. سيمون؟! اين وصلت مع صاحبك النواب؟!!

وانشر المفاجأة عليهم. اجعلهم يطيطون من الفرح. عادت ايام زمان. الايام التي لا تنسى. ايام الفرح. والسمر حتى الفجر. لن تنبدد ليالينا امام التلفزيون ومقارعة الاولاد، عودته أجمل من الحلم.

هل حقا عاد؟!!

هل يعود من يغادرنا؟!

كنت لا ازال اتحرك امامه محاولا لفت انتباهه. ينظر لجهتي ولأمر غير مفهوم لا يحرك ساكنا.

ربما لا يراني؟!!

يثيرني ببرودته غير المتوقعة؟ يربكني بتجاهله غير المفهوم.

أيجوز انه ليس هو؟!!

اكاد أفقد ثقتي بنفسي. ما يعتري هذا الرجل؟! هل عاد جسدا بلا روح؟! فقد ذاكرته؟! فقد صلته بماضيه؟! نسي ما يربطه بالأصحاب؟! تلاشت ذاكرته؟! أمحي الماضي من ذهنه؟!!

مذهلة الافكار التي تراودني عنه. شعرت ببعض الخوف من استمرار تدفقها وغرابتها. نفضتها من ذهني ثم ناديت كمن افاق من غفلته:

- حازم ..

ينظر الي فيقشعر جسدي وتنقبض نفسي انقباضا مؤلما. يتألمني بهدوء غريب وعميق كمن يحاول ان يتذكر شيئا ... فاشعر بحرارة اشد من حرارة النار تصليني. يغرقني العرق والضيق. يعود الى كأسه بتلقائية دون ان تسبب رؤيته لي لأي رد فعل عنده. يواصل سحب الانفاس من " الجيتان " ورشف الخمر والتلذذ بالمكسرات المالحة. ينتقل جسدي من الحرارة الشديدة الى برودة كبرودة الماء المثلج.

يعذبني تجاهله لي. ماذا اقول للأصحاب؟ هل كتب على شملنا الا يتجمع ثانية؟! ان يمتد الفراق ويغيب اللقاء؟! تتلاشى السعادة وينتهي الفرحة؟! يتضاءل الامل؟! يسود خريف؟!!

نشتهي الربيع وتفرح احلامنا من الامنيات؟ تراحمتم استفساراتي وتوالت تعجباتي. سعيت وراء مجهول يهبني الهدوء. ظهور غريب امامي. هل انا في زمن غير زماني؟! في مكان غير مكاني؟! في عالم غير عالمي؟! اومأت اليه يائسا. واصل صمته ورشف الخمرة من كأسه. شعرت أنى أطلقت الوقوف في الشارع ناسيا نفسي، غير منتبه لنظرات الناس المارين حولي. ربما يقولون اصابه الهوس فجأة؟! لطف الله حل عليه؟!!

هل اتقدم وأخبره بحقيقتي؟ انشط ذكرياته؟ هل اكشف اللثام عن بعض ما يجمع بيننا؟ انزع الحجب عن ايامنا ولياليها؟ افتح ابواب الماضي ... وأطلق ذاكرته من سبوتها؟!!

اردت ان انطلق نحوه واعانقه عنوة. ولكن برودة رد فعله غير المتوقعة على ندائي اوقفتني. اثقلت لساني واضاعت مني الكلام، وانزلت على الصمت.

مضت برهة ثقيلة وانا اتنقل بين الحر الشديد والبرودة القاسية. وفجأة اتقدت فكرة في ذهني فخف حملي.

تقدمت نحوه بوجل ما. تخلصت من اكياس الخضار والفواكه قرب المدخل ووقفت قبالته مستنفرا كل حماسي مجندا كل حواسي، وموقظا كل افكاري، متحضرا لمرافعتي. واجهته وقلت بهدوء وانبهاري باد متجل:

- حازم؟ ... متى عدت؟!!

- اشتقت فجئت؟!!

اجاب ببرودة حيرتني. فأصررت:

- متى؟!!

- منذ اشتقت!!

لا يبدو عليه شوق لشيء سوى كأسه. واصل اتكائه، غير أنى لمست اتساع حدقتيه وهو ينظر الي فاستبشرت خيرا، رغم بلادة اجاباته وعدم وضوحها وغموض احساسه.

- اشتقتنا لك يا حازم .. الواقع ان مجيئك غير متوقع. نوع من المستحيل. شيء لا تفسير له. لو أيقنا أنك عائد لسعينا لا عادتك ... الى لقائك.

يبتسم ابتسامة صغيرة لا تعبر عن فرح ولا عن يقظة. مع ذلك كانت كافية لإثارة حماسي وأملي ويقيني بقرب ذوبان الجليد بيننا. كأنه يخبرني بابتسامته عما في قلبه. وعلى نقيض ذلك، كنت كلما ازددت تأملا في حقائق ما يجري تفيض حيرتي أكثر.

هل حقا غادرنا ام أنى واهم؟!!

ربما انا من فقد ذاكرته وها هي تعود لي؟ ربما هو لا يتوقع عجيبة تعيد ذاكرتي؟! ماذا يحدث لي؟! وما هذا الذي يخطر على بالي؟! واين تغيب الحقيقة؟! ولماذا يتألمني بهذا الشكل؟! ها هو يحرك شفثيه ... ترى ماذا يريد ان يقول؟!!

- هل تعرفني؟!!

ما هذا السؤال؟! بل ما هذه الورطة؟! يفحصني؟! سأل بهدوء وبكلام قاطع لا يتفوه به الا ذوو المعرفة القاطعة. شعرت برأسي ينقطع عن جذره، بأفكاري تعوم حائرة مترددة، وبخواطري تتلاشى.

اجبت وكنت كمن يتعربش خشبة نجاة في بحر لجوج:

- اعرفك؟! وكيف لا اعرف حازم؟! لم يكن لي صديق عزيز على نفسي مثلك!!

- انا لا اتذكرك!!

نفس اللهجة الواثقة القاطعة التي لا يتفوه بها الا ذوو المعرفة القاطعة ... ومع ذلك لمست، او هذا ما اردت ان أشعر به، بانه لم يوصد الباب بعد. ومع ذلك ألمني جوابه.

اندفعت لذهني بلا ترتيب ذكريات متشابكة من الزمن الماضي. حاصررتني الذكريات ولم تترك لي منفذا. انكملت وانخرست لحين غارقا بكابوس شديد.

اصفاد ثقيلة تقيد فكري وتحول دون تذكر ما كان بيننا.

اصررت على العودة لذاكرتي للتأكد من حقيقة افكاري وتوضيحها. كنت كمن يصعد جبلا بالغ الارتفاع وعلى كاهله حمل ثقيل ... ما ان يبلغ بحمله قمة الجبل، حتى يهوى حملة للقاع ... فيعود ليسحب حملة صاعدا مرة اخرى. انها مأساة سيزيف، تتكرر بأسلوب عصري، دون تدخل الالهة واحكامها الغربية.

عدت افحص يقيني. افحص نفسي. افحص وضعي، ربما وهما عابرا يعتريني؟ خلل بالرؤية؟ خيال جامح يشق طريقه متجاوزا منطق الاشياء واصولها.

أتأمله وهو لا يحرك ساكنا. لا يضايقه وقوفي امامه وتحديقي به ...

كان يسافر للعمل معي يوميا، كنت امر عليه في بيته في الصباح الباكر، وكثيرا ما ايقظته ودخلت مطبخه اعد فنجاني قهوة منتظرا ان يرتدي ملابسه. نشرب قهوتنا ونسافر للعمل. كان المسافر الوحيد معي، وبسببه لم التزم بنقل عمال اخرين، محافظا على علاقات خاصة وتفاهم تام ولغة مشتركة جمعتنا، وصداقة مميزة شدتنا بحبالها فلم نفترق.

مساء وبعد انتهاء العمل ... لا بد من شرب عدة زجاجات بيرة اثناء العودة، فالمسافة على حد تعبيره تستغرق ساعة سياقة كاملة مما يشكل تبديرا للزمن لا بد من تغطيته بشيء يشرب او يؤكل، ودائما يؤكد بخطابيه يتقنها وبمرح ظاهر:

- كلما شربت اكثر يزداد ظمأي .. هل تعرف من هو اشعر الشعراء؟! انه صاحبي ابو نواس. هو الوحيد الذي يفهمني كما فهمته، مع ان زمني غير زمنه. علماء اللغة والادب لن يفهموا تجليه وعلياه إذا لم يمارسوا الشرب ويدمنوا عليه. الشرب يا صاحبي هو زهرة الحياة، هو الفردوس. الم يعد سبحانه وتعالى الصالحين بأنهار من

الخمير والعسل! فما البأس علينا إذا لم نصبر؟! نحن هنا كفئران التجارب ... شربنا وسعادتنا وانبساطنا هو النموذج والمثال الذي ينتظر الصالحين. فليهنأوا بما كتب لهم ولترتو اعينهم بما ينتظرهم. فلهم الانهار اما نحن فلنا بعض الزجاجات والمدللة هو الوهاب. فقط ابو النواس يفهمني ... وانا افهمه. وداوني بالتي كانت هي الداء. والدواء من داء الخمير هي انهار الخمير، فهل يطولنا نصيب فيها؟!

كنت أصل للبيت جائعا، وكثيرا ما دعوته للعشاء معي، او دعاني للعشاء عنده. وعلى اي حال لا بد من اللقاء بعد العشاء لتوديع يومنا ببضع كؤوس من الخمير. حتى تملكنتي عادة الشرب اليومية. غير أنى لم أفرط بالشرب مثله. كنت أقف على الشاطئ بالاقدمي، وكان صاحبي يغوص في اعماق البحر ظمأنا لا يعرف الارتواء، جذلا سعيدا كالأطفال، ثم يطلق عقيرته بالغناء، او بما تيسر له من سور كرام. فيتجلى في صوته وابداعه!! فما باله لا يتذكرني؟! ربما يتجاهلني؟! ربما.؟! ألف سبب وسبب؟!

- لا تتذكرني حقا؟! ألم نعمل سوية لمدة سنتين في مكان عمل واحد؟! الم تسافر معي يوما؟! وامسياتنا وسهراتنا؟! والليالي التي قضيناها متسامرين حتى الفجر، فربطنا ليلنا بنهارنا دون ان نعرف للتعجب معنى وللارتواء طريقا؟!

- صح صح .. الان اتذكر. لم اعرفك في البداية...!

قال خارجا من هدوئه، تاركا لابتسامته ان تشع أكثر.

تيقظت احاسيسي ونفضت عني الكأبة ودبت الدماء في عروقي من جديد. ومع هذا بقيت وجلا. فكلامه خال من الحرارة. كلمات تنطلق من جهاز تسجيل على شكل انسان. لا يبدو انه يعيرني اهتماما، او يلقاني بحرارة صداقة طويلة. تصرفاته تتناقض مع اندفاعه وحميته بقاء الاصدقاء. ربما ليس هو؟! كل الظواهر البارزة تؤكد انه هو. اتكون المشكلة في نفسي؟! هل هو يسايرني؟! تراه يشك بعقلي؟! ام يجرب قوة اعصابي ويقيني؟! ظهوره فاجأني. صعقني. ظهر مخترقا حدود المنطق. متجاوزا للأدراك العقلي. ولكني صاح ويقظ وافكاري مستقرة رغم ظهوره الغريب. لم أفقد قدرتي على التفكير بترو. لم تعم افكاري في بحار هوجاء. ولم تتخبط امام ظهوره المذهل، ولم تتحدر قدرتي على التمييز والملاحظة. انه حازم!! ما باله يحطم نسوتي ببقائه؟! وما هو الغريب فيما يحدث معي؟! اليس ما يلهم بي حالة غريبة تتناقض مع منطق الحياة؟!

بدأت الحيرة تتنابني من جديد وبشدة أكبر. بدأت اشك جديا بما يجري معي. الى ذهني تتصاعد اسئلة متكررة تتقاذفني بين الكأبة والانفراج. بين فرح اللقاء وبرودة الاستقبال. اين تلاشت ايامنا المتوهجة بالسرور وليالينا المترحة بالنشوة؟!

هل هو حلم يعتريني في صحتي؟! كيف وكل الامور واضحة جلية؟! هذا انا، هذه اكياس الخضار، هذا شارع البنك، هنا مقهى منصور بوجوه زبائنه الذين لا يتغيرون، وهذا حازم بكرشه المندفعة للأمام وبوجهه الممتلى. بقامته المربوعة. بأناقته في اللباس، وبالعطور التي تفوح منه. بخطيبته. بصوته. بسيجارته " الجيتان "، فكيف لا اعرفه؟! كيف وبيننا زمالة عمل، وصداقة شخصية عميقة لم يهزها الزمن تمتد على مساحة عقد كامل من السنين؟! الم نكن نلتقي لمدة تزيد عن خمس عشرة ساعة يوميا بين العمل وجلسات السمر؟!

مضت لحظة التقطت فيها انفاسي. طفوت الى اعلى عليين. ثبت يقيني وترسخ، ورأيت الصورة بكمالها العجيب، متجاوزة لأبسط قواعد المنطق.

ذكرته بأسماء الاصدقاء، وسألته ان كان يذكر ايامنا الحلوة. حاولت التأكد ان كان يدرك فعلا ما كان بيننا. فبدت حالي كمتحن لا يعرف أكثر مما يعرفه تلميذه. تذكر الجميع ونسيني وانا الاساس، فوثب على حزن عابر وحيرة شاملة، فصمت النقط انفاسي مزمعا على الخروج والذهاب في طريقي. غير انه ضحك وطلب لي كأسا، واثار لي بالجلوس على مقعد مرتفع قبالبته. تأثرت من دعوته. همهم بكلمات لم افهمها، ثم اشار لأكياس الخضار،

وسألني ان كان معي بعض الفاكهة؟ اسرعت واحضرت تفاحتين، وحبتي خوخ وبعض المشمش. فأبدى حماسا زائدا، وقال سعيدا واساريره تنفرج:

- التفاح ملك الفواكه !!

واضاف:

- لم أكل منذ زمن طويل ... منذ غادرت.

حسبت فترة غيابه في ذهني وأجبت مذهولا:

- مستحيل ... ثماني سنين بلا طعام؟!!

- وبلا فاكهة !!

حيرني كلامه فأثرت الصمت، متوقعا ان يكون قد حدث لعقل الرجل شيئا. ولكنه يبدو رزينا كما عهدته، هادئا كما عرفته، فما باله يروي لي قصصا لا تخطر على بال؟!!

سألته بنوع من الاستسلام امام ظاهرتة الغريبة منذ البداية:

- وهل كنت تشرب الماء...؟!!

لم يرد على سؤالي بقصد او بغير قصد، لا أدري !!

الوقت الذي جمعنا ووهبنا السعادة هو الذي فرق بيننا واغرقنا بالحزن، وهو الذي يجمع بيننا اليوم بشكل لم أجد له تفسيرا معقولا حتى يؤول الزمن الى انتهاء.

رفع كأسه:

- بصحتك ...

دعاني للشرب سعيدا

- بصحتك ...

اجبت متوجسا من سعادته او من حقيقة ما انا فيه، مؤكدا لِنفسي خلو ما يعتريني من الاحلام. وبقي غموض شديد يتحصن في ذهني، أعجز عن الولوج اليه وفهم محتواه، فقبلت بالأمر الواقع، وانا على يقين انه سرعان ما يعود الى طبيعته التي اعرفها. وقلت لِنفسي: " لعله اشتاق لكأس خمر فجاء يشربها ويعود من حيث اتي؟! "

ساد صمت حار بيننا. وتسربت لأنفي روائح الريحان الذي ينمو بكثرة فوق القبور التي تقع مقابل مقهى منصور، حيث فاجأني لقاءه. فاعتراني خوف وقلق شديدان، ولم أدر ما الدافع لهذا الربط بين الريحان والقبور. بحثت عن صورة او فكرة اهرب منها مما يعتري ذهني من افكار غريبة. استعصى الموقف على فاذا بالكرب يجتاحني اجتياحا. ما لي اخوض الطرق الوعرة معذبا نفسي ومرهقا فكري؟! لأقبل بما هو واضح جلي، فلحظات السعادة قد لا تعود.

افرغت بعصبية نصف الخمر في جوفي، وتجلدت متحملا حدثها، فخف كربني ونشط فكري ولمعت بذهني صور عدة وذكريات متلاحقة. فسالت كمن افاق من غفلته:

- هل تذكر أمينة يا حازم؟!!

- آه ... زوجتي !!

رغم مفاجأتي له بالسؤال الا ان جوابه جاء تلقائيا وبشكل عادي.

- ولكنكما لم تتزوجا؟!!

- أمينة كانت دائما زوجتي .

يقينه هز ثقتي بنفسي وجعلني اتساءل بيني وبين نفسي: " ما بال الانسان يتجاهل ويتعامى ويدعي ما لم يحصل. ويفضل الظلام على النور والغموض على الوضوح؟! " .

عدت اساله غير قادر على اخفاء استهجانتي وحيرتي من المفارقات الغريبة التي تحدث معي:

- أمينة نفسها؟!... اليافوية ابنة التركي؟!!

- أجل زوجتي ... دائما كانت زوجتي!!

اختلطت حواسي بشكل يصعب فصله، واحترت في معرفة حقيقة مشاعره وحقيقة نفسه.

ربما هو حقا انسان آخر يحمل نفس الصفات ونفس الشكل ونفس الميول؟! كيف أتأكد من حقيقته؟! ربما يهذي وقد عاد مصابا بالمس؟! او تهيأ له اشياء غير واقعية؟! يخلط بين ميوله ورغباته، وبين واقع الاشياء وتطور الاحداث؟!!

أين أنت من أمينة يا حازم؟!!

هل انت حازم حقا؟! حازم المتجلي دوما؟! الفطن؟! المستقصي عن الحقائق من صميم الغموض؟! الحذر في تقييماته؟! المباغت في وضوح افكاره؟! هل انت حازم حقا؟!!

الوجه وجهك رغم الشحوب البارز. القامة قامتك، والكرش المندفع للأمام كرشك. والصوت صوتك. نفس اسلوب التنفس واللهاث. دائما ينقصك شيء من الاكسجين. ربما يعتريه ذعر غير مفهوم؟! هل حقا كانت نهاية لا بداية بعدها؟! نصلُّ غاص للأعماق فقطع سبل الافكار والأمال والاحلام. فاقعى الأسد عاجزا عن الحركة، وتجمدت العاصفة فانتهت الرسالة وانتهى الانسان وتجلي العدم؟!!

حقا اقول ان نظراتك لا تعجبني. فيها كل شيء غير مفهوم، اخاف ان اقول غير بشري، نظرات انسان من عالم متجمد. ارتشفت نصف الخمرة المتبقية بالكأس عل نارها تحرق قهري من حقيقة ما يجري وغموض ما يعتريني وعذاب ما يعصف بي.

ماذا اقول للأصحاب؟!!

كيف أخبرهم بعودتك؟!!

اقول لهم عاد حازم الذي نحبه ولكنه مختلف عن حازم الذي نعرفه؟! ام اقول عاد حازم الذي نعرفه ولكنه مختلف عن حازم الذي نحبه؟!!

لأول مرة اشعر بالندم من لقائي به. اخاف ان تتشوه صورته والذكريات التي احملها عنه. ليتني لم القاك.

هل اتجاهلك وامشي؟!!

همي الان ان اتخلص من شرب ما في الكأس لأغادر مهزوما مبهذلا. أشعر بالألم حتى الأعماق.

أقول لنفسي: " هذا هو الفراق حقا!!"

كأني بمركب بلا شراع ولا دفعة، يتأرجح مع الامواج، يعلو وينخفض بعنف. وتدفعه الامواج بلا اتجاه. ينشد من عليه النجاة، لكن لا قبطان يضبط سيره، ولا يابسة تلوح مبشرة بأمل الوصول للبر، ولا حمامة مع غصن زيتون !!

- اشرب !!

يحثني كعادته مما يثلج صدري بعض الشيء. ربما البعد المتواصل يجعله حذرا في الانطلاق على سجيته مع اصحابه القدامى. او يكون نام نوما طويلا يجعله كالمخبول، مترaxي العاطفة والمشاعر، متجلد الحواس بعيدا عن التواصل، لا يعي ذهابه ولا ايباه، خالي الفكر، متلاشي الذهن، ماضيه راقد في نفسه، وحاضره خالي الملامح.

كانت أمينة خطيبته، يوم كان شابا يافعا، يقيم مع والديه في مدينته يافا، التي يذكرها دوما بحماس خاص، فارتبطت يافا بأسرار حبه وارتبط بيافا، فكمال الواحد الاخر. وكان نهار وكان مساء، وتكون زمن الوجد وامتد ليتصل مع البحر، يتسع به. يكبر بكبره. فتجلى برفقة حبيبته ومدينة حبيبته. وبحر حبيبته. فعاش في دهشة الحب المتكررة. حتى جاءت العاصفة الهوجاء فاقتلعت الناس وعصفت بهم دون حساب للارتباطات والعواطف والآمال والاحلام ... فحل زمن السفر الدائم والشوق الهائم. وظل كل شيء يدور بلا استقرار. ووجد الناس من الآمال والأحلام والامنيات. وحل شقاء بلا شيطان وتشتتت الجذور !!

وانفصل الحبيب عن حبيبته. وانفصل الانسان عن ملاعب صباه. وتاه في عالم غريب. يحاول ان يجدد ما كان. فيرفضه المكان الغريب. يبحث عن تجديد ما انقطع فتصدده حقائق عسيرة عن الفهم. تلاشى النور وانتشر التأوه ... تلاشى الحب وانتشر القهر. تلاشى الانسان من الانسان. صارت الحياة قرينة الموت.

وكان صباح ...

وكان خريف ...

وكان شتاء ...

وكان صيف ...

وافتقد الربيع ...

ومضى الزمن ...!!

مضى بطينا عسيرا مليئا بالقلق. وكان لسان حازم يقول:

- الفرج يا مالك الجنة. الفرج يا واهب الراحة وموزع الحب ومهندس الاماني. أنقذنا من هذا الطريق الغريب. خلصنا من هذه الحياة الاليمة. ما بالك تتجاهل وتعمى عن رؤية الظلم؟ هبنا شيئا من حقنا يا وهاب. اشفعوا لنا يا انبياءنا واوليائنا. اشفعوا لنا يا اهل الجنة الكرام. أنقذونا من الفراق العسير والضياع الاليم. اعطونا ضوء نشد السير نحوه. حلما نشق الدرب اليه. وهما نتعلق به.

بعد ضياع وتنقل وصل حازم ووالداه واخوته لمدينة الناصرة، فاستقروا فيها.

وغرق الناس بمأسيتهم ومشاكلهم. كل يبحث عن جذوره، وما تبقى من أهله. أين اوصلتهم العاصفة. هل ما زالوا احياء. من مات منهم. من نجى. أين استقر بهم المقام. كيف يتدبرون. بمحاولة اولى لالتقاط الانفاس ...

يومها لم اعرف حازما.

كنت طفلا وكان شابا يافعا.

يوم عرفته لم يكن قد تزوج أمينة.

ويوم غادرنا لم يكن قد تزوج أمينة.

ومن يومها لم يعد.

وأمينة أيضا أصبحت ذكرى.

ويافا التي شهدت توهج الحب بين القلبين الشبابين لم تعد يافا التي تحتضن أهلها.

أصبحت غريبة. مغتصبة. لا تجد من يداوى جراح روحها.

فمتى تزوجها اذن؟!!

سألته وأنا ادق كأسى بكأسه:

- بصحتك!.. متى تزوجت أمينة؟!!

- منذ التقيتها!!

لعله يبصر ما لا أبصر. حدقت بوجهه طويلا فاستسلم لنظراتي المتفحصة دون اعتراض، بل ودون أدنى اهتمام.

سألته بشيء من العبث:

- وعندك اولاد منها؟!!

- لا ادري اسالها!!

ايقنت ان حالي كحال الذي يخوض غمرات جهاد ضعيف الامل. هل هو في سبات؟! صاحي الجسد نائم العقل؟! ربما انقسام شديد في شخصيته؟! كنت انظر اليه بحواسي كلها شاعرا بلغزه يكبر ويتفرع، وبشجوني تترسب. انه ابعد عني أكثر مما ظننت. بحثت عن مدخل لذاكرته علني اوقظها من سباتها الممتد.

ما زلت محتارا من ظهوره واقول لنفسي " ربما ظهر بلا ذاكرة "؟ افترض الفكرة فورا. اشعر أنى عائم بأفكاري، غير متمكن من ضبطها. ربما انا الذي صرت نوعا جديدا؟! تغيرت لدرجة لم اعد اعرف نفسي. ولم أعد أعرف اصحابي؟!!

كان قبالي ينفخ دخان سجاثره باستمتاع. يحيرني هذوؤه وصمته، ويبعث في قلبي توجسا غير مدرك!!

في سنوات السبعين تعرفت عليه. كنت في بداية العقد الثالث من عمري وكان في نهاية العقد الرابع.

جمعتنا صدفة عند حلاق. كان يشرب كأس خمر. انيق المظهر كعادته مرتب الهندام حلو الحديث.

بدا لي للوهلة الاولى مختارا او ثريا من اصحاب الاراضي والاملاك... وليس بحاجة لعمل من اجل معيشتة. كل ما هنالك انه يتلذذ بكؤوس الخمر، وبالأحاديث الشيقة. أو ربما مخفيا اوجاع نفسه من فقدان حبيبته لا يجعل صحبه يدركون ما يراود فكره. ولا ما يجول بخاطره.

فوجئت انه يبحث عن عمل بالحدادة. سألته غير مصدق ما سمعته اذناي:

- انت حداد؟!!

فأكد لي ذلك. وصادق الحلاق على قوله. وها هو حديثه المهني ومعرفته المهنية كما يشرحها لي، لا غبار عليها. وتبدو معرفته النظرية والعملية واضحة، لا يلم بها الا عامل واسع الاطلاع وجيد الخبرة. كنت مديرا لجودة الانتاج في أحد المصانع الكبيرة في الجليل. رتبت له عملا في المصنع. فجمعتنا الزمالة اولاً، ثم تلاقت الافكار والميول، فزال حواجز التوجس بيننا وتعززت الثقة المتبادلة، فسحرتني بسعة اطلاعه وثقافته الواسعة. وقدرته على الرواية. وتألمت بنفس الوقت لحالته الاجتماعية عازبا يقترب من الشيخوخة. يهرب من الأحاديث عن الزواج والابناء. فاحترمت رغبته وتوطدت صداقتنا مع الايام. فعرفته على اصدقائي، وعرفني على اصدقائه. فتكونت شلتنا التي استمرت نشطه تضج بالحياة لعقد كامل.

نظر الي فجأة كمن تذكر شيئاً سها عنه. وسألني محتاراً:

- اما يزال أخي حيا؟!!

وتذكرت اخاه هاو صيد السمك. بقامته النحيلة بسيارته " الجيب " القديمة والمشهورة. وبملايس الصيد الخاصة به. كان حازم يقول عن أخيه:

- انه اكثر من أخ .. انه بمثابة والدي!!

كانا يسكنان نفس المنزل. كلاهما غير متزوج. علمت فيما بعد أن للأخ الأكبر ابنة من زواج مختلط سابق لم يدم طويلاً. كأن القدر حكم عليهما بالوحدة الابدية. كانت تسود بينهما علاقة تفاهم وطيدة رغم اختلاف الأمزجة. وكان الأخ الكبير دائم القلق من افراط حازم بالشرب. فيستنجد بنا لحث حازم على التخفيف. فيغرقنا البحر. فنعود اليه وبأذيالنا الفشل. فيقول متألماً:

- انه اخوكم .. ان صار عليه شيء أنتم الخاسرون.

فنحاول مجددا ان نكر على بحر لا ينضب. وحالنا كحال الذي يفرغ نبعاً بدلو، وبحراً بزناييل بصل. فيصرخ بنا حازم بصوته الجهوري:

- يا معشر القوم ... لا تبيعوا حبيبيكم. تذكروا " ابو النواس " إذا احببتموني أنقذوني ببئر من كفرنا.

فنفرط معه بالشرب ناسين او متناسين مهمتنا.

- اجل مات ... ذلك الرجل الطيب.

أجبتة. فلم تتغير سحنته ... وكان الخير لا يخصه!!

حشنته يوماً على الزواج. كانت زلة لسان مني عن موضوع تعمدت ان لا اضايقه به. كنا عائدتين من العمل. مزاجه رائق ومصاب بحالة سعادة فجائية. يغني ويؤذن بصوت مرتفع. وانا منطلق بالسيارة. أسرع وأبطئ حسب نغمة غناؤه. قلت مستغلاً فترة التقاطه لأنفاسه:

- امنيتي يا حازم ان اراك متزوجا !!

- ما احلى الأمانى . عندي منها بضاعة كثيرة. من ايام يافا وانا اجمعها واجمعها واجمعها !! آه ما أثقلها !!
وضحك بصخب. غير أنى شعرت ان ضحكته تخفي كآبة نفسيه سوداء. فلمت نفسي على طرح الموضوع،
وسارعت أقول:

- انا أسف اذا ضايقتك؟!!

ورفض أسفي وقال بحرقة:

- أفهم قلقك علي .. ولكني لن أخون أمينة !!

ولم أفهم ما يعني بأمينة. ومن تكون أمينة هذه التي لا يريد ان يخونها؟ لأول مرة أسمعه يذكر اسمها امامي.
شعرت أنى فجرت ألاما قديمة يتجاهلها وتعذبه.

- أمينة؟!!

- حبيبتي منذ خلقت .. أحيا وأموت على دينها.

- تزوجها؟!!

- فانتى الميعاد .

- هي .. تحبك؟!!

- كنا احلى عاشقين .. بادلنتي حبا بحب وجنونا بجنون ... لم تسع يافا حبنا. ولا اتسع بحر يافا لعواطفنا ...

فهمت انه يعني حكاية قديمة من ايام شبابه الباكر قبل ان تعصف بيافا الرياح. فقلت لنفسي: " لعله يعيش صدمة
من ايام شبابه. ربما تزوجت أمينة التي أحبها من غيره فصدم ...؟! هل من المنطق ان تنتظره فتاة ثلاثة عقود؟!!"

سألت بوجل فاحصا كلماتي قبل أن أتفوه بها خوفا من جرحه:

- هل افهم ان أمينة تزوجت؟!!

- أبدا !!

- وماذا تنتظر؟!!

- انا نفسي لا اعرف .. أشعر أحيانا بالخوف من الظهور في حياتها بعد هذا الزمن الطويل. انا واثق انها لم
تتزوج بسببي. انتظرتني طويلا. كدت أعود اليها لولا انه اعترتني لحظة ضعف. ليست لحظة ضعف ... خفت
أن أصدما بلقائي. وضعها لم يكن يسمح. كانت محروقة. ليس شيئا جديا كما علمت فيما بعد. ولكني لم أظهر
وهي في قمة رونقها. لم أظهر وهي تأمل برؤية فارس أحلامها. فكيف أجيئها وهي يائسة مشوهة.؟!!

بدأت ابني افكارا وتصورات عن الاحداث التي يرويها خطفا. كونت عدة افكار تصلح لصياغة قصصية. ثارت
النار التي تعتريني كلما توهجت فكرة لصياغة قصصية امامي. ولكني زجرت رغبتى التي اعلم تماما ان لا
سيطرة لي عليها. المأساوية التي يحاول حازم ان يطويها بضحكاته، كانت أقوى من كلماته، التي يلقيها وكأن ما
يرويه لي، لم يعد يحتل كل حزمات حياته. وكل ذرة من تفكيره. انا امام اكتشاف غير عادي. هذه الفكرة

المجنونة تجعلني مندفعاً بلا ترو. ولكني لم اخرج بصورة واضحة من النتائج التي استطعت ان اجمعها في ذهني.

- انت تزيدني تعقيدا اذا كان يضايقك الموضوع فانا اسف واطوي الصفحة ...

- ابدأ ابدأ .. يا للسعادة التي اشعر بها كلما مرت أمينة بفكري. هذه حكاية قد احكيها لك يوما.

وأنا هل أستطيع الصبر؟

اثار شجوني بسليبيته من موضوع الزواج. قلت سلبية ولم اقل رفضه القاطع. وشتان بين الموقفين. هناك شيء يقيده، يمنعه من الاندفاع. لماذا لم يتزوجها قبل ان تحترق؟ او بعد ان احترقت؟ ولماذا احترقت وكيف؟! وهل له دخل بموضوع حرقها؟ ... أليكون بسبب حبها وانتظارها له؟! وهو؟! وتردده؟! لمحت وحافظ على صمته بمضض بارز. كأن حاجزا في نفسه يشده بعيدا عن خوض التجربة. كانت حبيبته في يافا منذ كان شابا يافعا فما المانع من استمرار العلاقة وترسيخها بإطار مقبول؟! وها هو اليوم يدعي ان أمينة زوجته؟! ومن مثلي يعرف ان أمينة وحازم لم يجمعا الزواج ابدأ؟

- واليوم ... الم يحن الوقت للأقدام. أمينة ما زالت على حبك؟؟

لفه صمت وهبوط في حماسه الذي كان يميزه في أحاديثه واثناء سفره معي، حتى كدت أنكره.

- أنت تعيدني الى أيام أحبها بكل جوارحي .. لا تؤاخذني على سرحاني. انا معك جسدا. ولكن روحي تطير في شوارع يافا. تركض على رمل البحر الذهبي. تعانق أمينة. نخترق الأمواج متعانقين. أشعر بدفء شفيتها. أعانقها فتتملص مني ضاحكة. لا تؤاخذني على دموعي. هذه ليست دوعر حزن. بل هو الفرح الذي ينقلني الى أحلام غادرتني يوم غادرنا يافا .. لا لن أخون حلمي.

مسح دموعين. وشعرت بالغباش على عيني. مسحت عيني بطرف يدي كي ابقى رؤيتي للطريق واضحة.

- ومع ذلك تواصل الهروب من أمينة؟

- انت تضطرنني لسرد الحكاية .. ربما هي الطريقة الوحيدة لفهمني. ولم يسبق ان حكايتها الا لنفسني. كل ليلة لا أنام الا بعد ان اخدر ذهني. انا لا أنام منذ فقدت أمينة. منذ ابعدت بيننا العاصفة. انا اخدر ذهني. ولكني اعود الى وعيي من جديد. تمضي الأيام. وانا ما زلت شابا اركض على رمل يافا الذهبي. تمضي السنون وأمينة يتأصل حبها في نفسي. ربما أخاف ان يعتريني من رؤيتها ما يفسد حلمي عنها. اريدها كما كانت في يافا. عروس البحر الساحرة والرائعة. هل تعود تلك الأيام؟ كيف تعود بعد ان ماتت يافا. بعد ان اغتصبت وشوهت؟ ربما حبيبتي هي التي اغتصبت، احيانا لا اميز بين حبي ليافا وحبي لأمينة. انا اتحدث عن مشاعر قوية تثير غضبي المكبوت. تفجرني من داخلي. ولكني بيني وبين نفسي اعترف بأنني عاجز عن انقاذ حبيبتي من مغتصبيها. عاجز عن انقاذ أمينة من الضياع ... هل راودك مثل هذا الشعور؟ انت لم تغادر الناصرة. لا تعرف معنى فقدان الوطن. معنى فقدان الحبيبة. معنى فقدان الرغبة بالحياة.

- آسف .. لم أقصد ان اثير أحزانك.

قاطعته. ودافع مجنون في نفسي يحثني على استخراج المزيد من اعترافاته.

لم يلتفت لمقاطعتي. أخذ نفسا طويلا. وأخذ جرعة من زجاجة البيرة الباردة. انتعش، وواصل حديثه:

- انا احبها وهي تحبني . انا واثق من حبها وانتظارها لي. اقول لك لم تتزوج بسببي. هذا الشعور يتمكنني. ولكن المشكلة ليست هنا. انت تضطرنني لسرد الحكاية. لم احكها لاحد. انت أقرب الأصدقاء لي. ربما يشعرنني ذلك

ببعض الراحة. لا أعلم. ستكون اول العارفين بحكايتي. بعد ان تسمعها قد تفهمني. انا اعرف ان بعض كلامي يبدو طلاس... أو اضغاث أحلام. ولكنها الحقيقة يا نبيل. بلا اضافات. بلا تزويق. انت كاتب وتتصيد الحكايات. اعرف ذلك وأحسدك، ربما هي طريقة للتفكير بالحياة وفهم مشاكلها. قد تجد في حكايتي مادة خام. ولكني أحذرك. لا تضيف ما ليس في الاصل. لا تشوه حبي. لا تشوه أمينة.

كانت امينة جارتنا. والدها تركي الاصل كأمي، أمي ايضا من أصل تركي. مما جعل العلاقات العائلية تتوطد لحد الشعور باننا بيت واحد. في هذا الجو من العلاقات الحميمة وعيت شابا يافعا ممثلنا بحب جيش الحياة والفرح.

تفتحت براعم شبابي الباكر على يقين ان أمينة لي. جزء مني. لم اتصور يوما، ومنذ وعيت شابا، ان حياتي ستخلو من أمينة. لم تكن أمينة مجرد صبية أعشقها، انما نمط حياة وانفتاح على العالم واكتمال الرجولة. وفوق ذلك سحرتني هذه الصبية الجميلة، ابنة الجيران الممشوقة القوام، الحلوة والساحرة، السمراء من لفح شمس البحر، عسلية العينين بشعرها الاسود المحرر دوما على ظهرها، لا تجمعها الا حينما تسبح ملاطمة الامواج بجرأة وخفة، فسحرتني بكمالها المتجلي وشدتني انوثتها المتفتحة وبشرتها المحروقة النحاسية من شمس البحر. وعيت عليها فجأة. انا احيانا لا افهم نفسي. كانت رفيقة طفولتي. لعبنا أولادا. وفجأة أرى أمامي انثى مشتهاة تدفع لنفسي أجمل الانفعالات. فصرت كمن يعوم في ذرى شاهقة من السعادة.

اصررت على الارتباط بها خوفا من النقول، ولرغبتني الشديدة بها، رغم صغر سني نسبيا، اذ كنت ما دون العشرين عاما. ولي اخ يكبرني.

رحب والدي برغبتني ولم يعترض. وربما يكونان قد لاحظا شيئا علينا، فأثرا دفع المركب، كذلك رحب والداها ايضا بسعادة، ورأيا بذلك تمتينا للجيرة الطويلة الطيبة والعلاقات الممتازة الحميمة، فاكتمل سعدي وانتشر فرحي ولم يسعني جلدي.

اوصيت على علبة الخطبة عند نجار كما كان متبعا وقتها، ولا تزال علبة الخطبة لدي، هي الشيء الوحيد الذي حملته من بيتنا في يافا يوم اشتدت العاصفة. وعلى جانبيها اول حرفين من اسمينا باللاتينية.

اراني حازم علبة الخطوبة فيما بعد وكانت بداخلها خصلة شعر سوداء ملفوفة بكيس نايلون ذكر بشيء من الارتباك:

- من شعرها يوم كنا عاشقين صغيرين !!

صعدت نظري فيه محاولا فهم ما يدور برأسه من افكار، وهل هذا الجمود الواضح يعني ان باله غير مشغول؟! كان يشاربني صامتا مستسلما لنظراتي المتفحصة دون ان يثير اهتمامه أي شيء حوله.

كنت ارتعش بين برهة واخرى من اللا بشرية المتجلية بوجهه وتصرفاته. هذا الجمود التام وكأنه لوحة مؤطرة. لا ارتعاش ولا حرارة كما يبدو لي. لا أدري. فيه شيء لا أستطيع الاقتراب منه. حتى رائحة الريحان الطيبة... بدأت تضايقتني في موقفي غير المفهوم امامه.

يشرب دون ان يبدو لذلك إثر على وجهه. ترتفع الكأس وتنخفض ميكانيكيا وبحركة محسوبة مقدرة. يبتسم احيانا احيانا يضحك دون ان يغير ذلك من نفسيته او من تقاسيمه. ضحكته تبدو مستأجرة. تمنيت لو أغمضت عيني وفتحتهما فأجد نفسي في مكان آخر بعيد عنه !!

لن اتصل بالأصدقاء ما دام الوضع بهذه الصورة الكئيبة كما ظهرت لي. مشاربه بالحالة التي ظهر بها معاناة قاسية. مع ذلك هناك اصرار في نفسي على التروي والتمهل. ما زالت أمل ان تتحقق عجيبة اخرى كعجيبة ظهوره تعيده الى نفسه تعيده الينا بكل حيويته. يتجمع شملنا من جديد، ونربط ما مضى من ايام. نجدد ما انقطع.

سألته وكنت قد شعرت انه يتردد في متابعه حكايته:

- وكتبتم الكتاب ؟

- لم يحصل.. لم يتسن لي خطبة أمينة رسميا.

قالها بحزن شديد وتأوه طويل جعلني اشعر بما يؤلمه.

فقلت الوم نفسي:

- انا اسف من تطفلي يا حازم . اود لو أستطيع ان احقق لك حلم شبابك.

- بعد ان عجز الاسد ؟!

- الاسد يبقى اسدا !!

- احيانا اظن ان ما مضى لا يتعدى بضع سنين .. ولكن عندما اعود لعلبة الخطبة واقرأ السنة واحسب ما مضى بذهني اصاب بذهول. لا اصدق ان السنوات تمضي بهذه السرعة والسهولة. يخيل لي أنى لم اعد أصلح للزواج.

- عاجز نصفي ؟!

فهمني وقال ضاحكا:

- ابدأ ابدأ .. لا أعنى القدرة. انما لا ارى معنى لحياتي. أن أبدأ وأنا في مثل عمري ببناء اسرة واولاد، هذه مسألة تحتاج الى اندفاع ومغامرة. اشعر أنى لم اعد قادرا عليهما. انا انشد الراحة... كأس خمر مع الاصحاب. ما يساعدي على تمضية العمر...

- والمرأة كأنثى .. الست حاجة لدرجة للرجل كرجل ؟!!

- تعني الافتراس . انت تسميه الحب. أنتم جيل اليوم لا تدرون ما هو الحب. التنتقل من سرير الى اخر تسمونه حبا. انا اسميه افتراسا. انا مفترس ايضا. ولكنه ليس حبا. اتركوا للحب معناه السامي، معناه الخاص، رباطه الخاص، جنونه الخاص.

- بالنسبة لي كله حب ... حب عابر، حب متنقل، وهناك حب دائم.

تأملني رافضا ما اقول. أفرغ غضبه من اقوالي بكز اسنانه ببعض وقال بهدوء:

- طز في هكذا حب !!

بعد برهة صمت ابتسم بصفراوية وقال كمن يتابع موضوعا لم يفه حقه:

- اي التي تدفع لها تعطيك حبا مقابل نقودك ؟ كله حب ؟ تلك تعطيك بضاعة وليس حبا. الحب ليس بضاعة.

الحب لا يشتري ولا يباع !!

اثر الصمت متفهما لنفسيته، مكتشفا أنى تفوهت وبشكل غير مباشر بكلمات تجرحه حين تحط من قيمة الحب.
قلت محاولا اخراجه من الموضوع:

- اذن انت ذهبت بطريق وامينة بطريق اخر؟!!

- ليس تماما. انا لم اختر طريقي، وامينة لم تختار طريقها. القدر ابعدها عن بعض. انا لا أومن بالقدرية. العاصفة الهوجاء كانت على الابواب. سبقت رغباتنا وأحلامنا وآمالنا وأفراحنا فتشردنا. تبعثرنا. وأضعنا صلتنا ببعض. ولا زلت حتى اليوم أتأمل علبة الخطبة وأفكر بالكارثة التي لم تتمهل. أفكر بأمانة وبأيام امينة التي لا تنسى، وأفكر بالحب القديم الباقي الذي يتجدد يوميا مع اطلالة كل شمس.

هدمت حارتنا. زرتها بعد سنوات وشعرت نفسي غريبا في مدينتي. هدمت تماما وتهدمت مدينتنا. تهدمت عائلاتها إذا صح هذا التعبير. ضاعت وفقدت ذاكرتها. حين زرتها هربت من منظر الخراب المنتشر. صدمت. لم اعرف احدا من السكان. ولم أدر ما العمل. رأيت طفولتي تصلب. شراييني تقطع. لم اعرف الناس ولم يعرفني الناس. ناجيت احلامي. راية انهيار عالمي وتلاشى حبي الجميل ... رأيت نهاية حلم لا يكتمل الانسان بدونه. ولا تسمو الحياة الا به ...

بعد ان استقر بنا الحال في الناصرة، بدأت البحث عن أمينة وأهلها. سألت الكثيرين من عرب يافا الباقين. الصدمة سحقتهم. كانوا اشبه بالدمى الشبيهة بالإنسان. سألت في تجمعات اللاجئين داخل وطنهم. أرسلت تحيات بالراديو. ودعوة للاتصال معنا على عنواننا الجديد. انتظرت. تجلدت. صبرت. عانيت طويلا حتى يئست من الوصول لنتيجة. وايقنت أنى فقدت أمينة للأبد. ولكني لن اخون حبا !!

وها هي الايام تسير. الزمن لا ينتظر احدا.

كنت افود سيارتي بسرعة نوعا ما حين صمت متأوها ولافتا انتباهي قرب احدى محطات الوقود:

- ادخل للمحطة نأخذ علبتي بييرة من المطعم .

حسبت ان حكايته انتهت. نزل من السيارة يشتري علبتي بييرة، فغرقت لبرهة في تأملاتي محاولا الربط بين ذكرياته وآماله الضائعة، وواقعه اليوم. لأول مرة منذ وعيت اتحسر على الماضي كما تحسرت اليوم، بعد استماعي لحديث حازم. كنت أثق ان ما يجيء من أيام، لن يكون أسوأ من الايام الغابرة. الأمل للأمام. الان أشعر ان خسارتنا أكبر من ان يعوضها الزمن.

حازم فقد حبيبته وفقد مدينته وفقد وطنه. وانا ولدت بلا وطن ... والحب بالنسبة لي متعة عابرة تهيني اياها انثى. أشعر أنى غريب في بلدي. أنا الآن أفهم أشياء كثيرة من زاوية لم أفكر بها سابقا.

ألا يكتمل الحب الا بوطن؟!!

وما هي علاقة الانثى بالوطن؟!!

ولماذا لا افهم الحب كما يفهمه حازم؟!!

كم هي شاسعة المسافة بين افكاره وافكاري. لا ارفض موقفه، ولكني لا أستطيع الاندماج معه، او الشعور بما يشعر به. ربما يكون تمسكه بحبه نوعا من التمسك بمدينته، بملاعب طفولته .. بربيع حبه. بأمنيته وأمنيته. ببحره. برماله. بسمائه. بشمس. بقمره. بنجومه ... بوطنه !!

سألت نفسي:

- ايكون هذا ما يجعل حازم مثاليا في اخلاصه لحبيته المفقودة؟! ام هو طبع تربى عليه!؟

انه صادق ايضا في اخلاصه لأصدقائه. صادق مع الناس. ودود للغاية. لا اذكر أنى سمعته يوجه قولا حادا لاحد. يحيرني بصدقه واخلاصه. ولكني لا استوعب سببا وراء تصرفاته التي تجعله يخسر شبابه. يخسر بها كل مستقبله.

هل زواجه وبنائه لبيته الخاص يعني خيانة حبيته التي ضاعت مع ضياع الوطن؟

هل هي خيانة لأمانة؟ وخيانة لمدينته ووطنه!؟

لا شك لدي بالرابطة العضوية بين حبه لأنثى اسمها أمينة، وارتباط هذا الحب بدائرة اسمها يافا والوطن.

اعترف أنى عاجز عن اختراق هذا الاشكال. المؤكد ان الموضوع يختلف بوعيه عما هو بوعي شاب مثلي، لا يعرف عن ضياع شعبه الا من مما يسمع ويقراً. وغني عن القول ان حازم بضميره، وبأعماق لا وعيه، بدمه، بشرايينه، تتشابك الامور لتكمل بعضها البعض .. بصورة عصي عن ادراكي العاطفي. ربما لو فقد أمينه دون ان يفقد يافا ووطنه لخرج من أزمتة ووجد حبا آخر.

قلت لنفسى:

- لا تهب السعادة نفسها للنهاية حتى لا تفقد معناها . فالحزن كما يبدو شرط للسعادة. فلا لذة بلا الم، ولا سعادة بلا حزن، ولا حب بلا فراق. هل كان عليك يا صاحبي ان تعبر كل هذا الصبر؟ ان تعكف على الاماني القديمة الضائعة وتتخلى عن الاحلام!؟ وآية حياة هذه الخالية من الاحلام والامنيات!؟

عاد للسيارة بعلبتي بييرة. جلس مظهرا مرحة .. ولكني لم أستطيع الا ان ارى مأساته.

نظرت اليه بشيء من الحيرة. لا يبدو كمن فقد حبيبة علق كل اماله واحلامه عليها. لا يبدو كمن أضاع ملاعب صباه، لا يبدو كمقيم في الرحيل الدائم بلا استقرار، وبلا لحظة راحة. انه يتحدث بهدوء وباعتيادية، وأحيانا بابتسامة. سعيدا من ذكرياته!؟ حتى تلهفه لمعرفة مصير أمينة لا يلاحظ عليه.

قلت لنفسى:

- الذكريات علامة لمن في صدره قلب وفي ذاته امل . القلب تحددت حياته بمفاهيم علمية، اما الامل فما الذي يحدده؟ واي مفهوم يحكمه؟ هل هناك حياة بلا امل؟ ام ان الذكرى تتقمص كل ما يحويه الامل من سعادة وفرح!؟

وعدت انطلق باتجاه الناصرة، محاولا تحطيم الصمت الذي ساد بيننا بغممة كلمات اغنية ما غير واضحة حتى لي نفسى.

قدم لي علبة بييرة أمرا كعادته:

- اشرب !! إذا صيرني الزمن ملكا ستكون سائقي الخاص!

- انا كذلك من دون ان تصير ملكا !

ضحكنا وشربنا وانساني الغم الذي أدخلني فيه بحكايته. انزاح الصمت المربك. أخذ نفسا طويلا من سيجارة اشعلها، واستمر يروي وكأنه يواصل حديثا لم ينقطع:

- في اواسط سنوات الستين علمت من بعض عمال الناصرة العاملين في بيارات الرملة ان رجلا يحمل نفس اسم عائلة امينة يشتغل معهم وهو من اصل تركي على الاغلب ، ويقوم هو وعائلته في " الجيتو " العربي في مدينة

الرملة . وكانت اول مرة اسمع تعبير الجيتو بوصف احياء العرب .. ولكن بعد يافا التي ضاعت، لم اعد اشعر الا ببعض الألم.

واضاف بعد ان تأوه .. وأخذ نفسا طويلا:

- هزني الخبر عن التركي .. اعادني الى حلمي القديم .. السعادة الحقيقية نبضت في صدري مرة اخرى. الحروف تراقصت على لساني. ارتعش قلبي بقوة وتملكني بكاء شديد !!

بدا التأثير واضحا على وجهه كأنه يمثل دورا حفظه واتقنه. وحتى انا البعيد عن مشاعره اشعرني بتأثره الواضح بروعة الخبر الذي بلغه.

قلت لنفسي:

- حقا ان الفرح الكبير في اقصى درجاته يجعلك لا تعرف الابتسام انما البكاء من شدة الفرح .

وتابع يقول:

- تحضرت للسفر الى الرملة للتيقن بنفسي من وجود حبيبة الصبا وزهرة العمر . عادت يافا الى مخيلتي. كنت أغفو وانا اسمع هدير الموج وبشيشة، فاصحو مزماعا بكل عقلي للنظر من شباك نافذة غرفتي في الناصرة نحو البحر، فيصدني منطقي، فأعود النوم، فيعود بشيش الموج لاذني. لو كنت موسيقيا لكتبت سيمفونية عن بشيش الموج وضجيج البحر. كلما ارتسمت ملامح امينة في مخيلتي ترتسم يافا وبحرها الازرق الممتد. لم ار بحر يافا منذ تلك الايام. حتى عندما زرتها تلك الزيارة اليتيمة، تجاهلت النظر للبحر. ربما فقدت قدرتي على احتمال الألم. في زمن واحد فقدت امينتي وبحري ومدينتي وبيتي. وها انا يتجدد أملى بقاء أمينة، فيطفو البحر الى وعيي. ترتسم الحارات والمقاهي والشوارع الممتدة الرحبة. أعرف انها اصبحت ركاما، ولكني اراها عامرة بناسها، ويمتلئ ذهني بوجوه الاصحاب والاهل وحكايا السهرات وقصص البحارة التي لا تصدق، والمثيرة للخيال الجامح.

أرى أمينة بانطلاقة الامواج وتحررها على الشاطئ. أرى أمينة تسابق الموج نحو الشاطئ بمهارة وتصميم فتحويها موجة بحب، وتدفعها للشاطئ بقوة. كيف أنسى البحر وأمواجه التي كانت تعانق امينة بأوممة وحب؟ تغسل مياهه جسدها البض. يרטب شعرها الاسود الطويل. يساعد الشمس على اعطاء جسدها لونه النحاسي الجذاب. البحر أمينة. يافا أمينة. الشوارع أمينة. الذكريات أمينة. الحكايات أمينة. الهواء والشمس والقمر والنجوم. كلها تحكي لي عن أمينة. فكيف أنسى حبي؟!

اعادني من الذكريات وهو يرفع الكأس الى شفثيه داعيا اياي للشرب. ملامحه لا تعبر عن مشاعر خاصة، بل من المستحيل ان يكون وجه كهذا بلا مشاعر، وجها لإنسان طبيعي؟!

- اذن مات اخي!!؟

فاجأني بعودته للموضوع فأكدت.

- الله يرحمه..

- لم يتصل معي قبل موته . لم يخبرني بشيء. اعتقدت انه حدث له مكروه. كان عليه ان يخبرني بأحواله. انتظرتة طويلا !!

احترت مستعصيا عن الفهم. كلامه يخيفني، كأني اسير في نفق مظلم مقطوع عن جذوري. لا أدري مخرجا للنفق. أبحث عن المنطق في رحم الغيب. أنشد بداية الفهم ونهاية المفارقات. بحثت عن جسارتي لوضع النقاط على الحروف. أعجزني ما انا فيه من ارباك ومباغثة، بدءا بظهوره المفاجأة وغير المفسر، وانتهاء بحديثه وشكله الغريب والبارد .. ووجدت ذكرياتي عنه تشدني بحبالها الحريرية ...

كنا ننطق باتجاه الناصرة وكان يتابع روايته:

- قبل سفري للرملة بلغ مسمعي من نفس عمال الناصرة ان زوجة التركي توفيت . صدمت وغاب عني التفاؤل وتوجست من طالعي.

ترددت بالذهاب للتعزية. قلت لنفسي إذا ذهبت للتعزية فربما يطولني لوم لاخفتائي عنهم كل هذه الفترة الطويلة. وهل وصلت لبيتهم لأقدم واجب التعازي فقط؟ هل ستستقبلني أمينة كشخص يقوم بواجب لجيران ابعدت الأيام بينهم .. وهل ستصدق أني ابحث عنها منذ تلك الأيام التي سحقت احلامنا ومدينتنا؟

لا قدرة لي على لوم الحبيب، ولن تصدق أني لم اعرف اخبارهم الا قبل ايام فقط. فآثرت السكون والانتظار. انا اعرف ان حجلي ستبدو تافهة، ربما يكون بعض التردد والتوجس داهماني فأيقنت أني امام مرتقى صعب. لا اريد ان أبدو أمامها كالمراهق المتعجل. كنت متحمسا وخائفا. نقائضي تتصارع بين الاقدام والتمهل. أعرف ما اريد وأخاف ان اصدم. ربما الجيل لعب دوره. انا لم اعد ذلك المراهق الشاب الذي لا يوقفه شيء عن اندفاعه. اليوم لم يتبق لي من الشباب الا اقله. ووحدتي الطويلة لها أثرها وقبوها. هل أستطيع ان اكون زوجا كأولئك الشباب الصغار؟ صحيح ان امينة ليست صغيرة ايضا، ولكنها تنتظر ما تسمعه وما تتوقعه كل فتاة. ربما لو كانت مطلقة او ارملة لاختلف الامر. الواضح لي أني لم اعد حازم الشاب ابن يافا، ابن البحر المندفع بلا تردد كالأمواج، انا ابن الضياع، فقدت حبيبي. وفقدت بيتي وفقدت مدينتي وفقدت وطني. أعيش مع شعب مكلوم يضمد جراحه، يبني ذاته من جديد. ولكن الجراح باقية ما بقي السبب. الالم باق ما بقي المؤلم. والدم ينزف ما بقي السكين بيد أثم. اما الخوف فلا أدري ان كان له دور في تكويني الجديد. ربما في البداية تجسم الخوف على فقدان ما تبقى بالنسبة لي. لم يتبق لي الا ذاتي. نفسي كما خلقها ربها. احيانا لا افهم حبي للحياة، هذه الملعونة التي تنكرت لي !! ولا افهم بحثي عن السعادة العابرة. ربما هي طبيعة الانسان. يجدد نفسه وآماله. يبني أحلامه وعالمه من جديد، بما تبقى وبما لم يتبق .. ويواصل الخلق والابداع والارتقاء فوق مآسيه وجراحه، ولكنه لن يغفر ولن ينسى، وسيورث ابناءه ذاكرته بكل حداثتها، بكل آلامها، بكل احلامها. هل تدري؟! قد تكون الاحلام هي الدواء لداء الحياة، كما ان انهار الخمر هي الدواء لزوجات الخمرات!!

دائما يدمج السخرية بالجد. ربما نوع من الهرب من الالم المتجسم بالواقع المرير الذي نحياه. او ان طبيئته تفرض عليه هذا الاسلوب حتى يخفف الحزن والأسى عند الاخرين. كأن لسان حاله يقول: " لا تقلقوا لا تحزنوا الانسان اقوى من المصائب. الابتسامة تهزم جحافل الغضب. اصبروا وتمهلوا. لكل شيء اوان. الضحكة ضرورية للحفاظ على النفس البشرية. ما لا يتحملة الصخر والحديد الصلب يتحملة الانسان ويعبره!".

قال لي وهو يرفع كأسه الى شفتيه:

- رائحة الريحان تملأ حتى كأسني .

جفلت وانا أرد عليه:

- ربما بسبب قربنا من المقبرة .

لم يعر جوابي اي اهتمام. ما ذكره عن الريحان اثار توجسي وعدم يقيني مما يتراءى لي. الريحان جميل الرائحة .. ولكن نموه فوق القبور، وارتباطه بعالم الموت والجمود الابدي اثار تقززي وتوجسي، وإذا ما اكملت الدائرة بظهور حازم الغريب، ومفارقات ما جرى ويجري معي من لحظة لقائه، يزداد الغموض ويتسع وينتشر القلق ... اغرقت ما بنفسى بجرعة خمر كبيرة ...

أفرغ حازم علبة البيرة في جوفة بنهم واستمتاع، ثم قذفها من نافذة السيارة المنطلقة رغم معارضتي الشديدة. وواجهني ساخرا:

- قذفونا من حياتنا من بلادنا من خبزنا من اهلنا ، وانت تخاف من قذف علبة فارغة؟!!

أدركت ان قوله جاء للتغطية على تصرف عفوي ابتسمت وقلت:

- هم يرتكبون الموبقات وعلبة البيرة تدفع الثمن؟!!

لم يرد. كان غارقا بذكرياته يبحث عن جملة يواصل بها ما انقطع:

- قبل سفري للقاء امينة اعترتني فكرة اخرى : ماذا تكون حالها ؟ ربما تكون متزوجة ؟ هل يعقل ان لا تتزوج فتاة بمثل ملاحظتها ؟ هل تصمد امام اغراءات الحياة وضغوطات الناس والاهل ؟ او تكون قد اخلصت مثلي لحب بلا امل ؟ ولحلم بلا اطار ؟

قررت تأجيل سفري. قلت لك ان نقائضي احدثت. احترت في واجبي وغاب عني اليقين.

ربما يكون ترددي بسبب خوفي من نهاية تعيسة لحلم شبابي وامل حياتي الوحيد المتبقي.

خفت ان تنتهي امنياتى الطويلة فاقبض على الريح بعد هذا الانتظار والصبر الطويلين. انا لست شابا يافعا صغير السن يفشل في تجربة فيدخل اخرى.

انا لا اتحمل الفشل !!

انا لا أقدر على الهزيمة بعد هذا العمر والامل الممتد المرهق.

أفضل ان أبقى نائما على حلم جميل.

البعد والتمني ولا اللقاء والفراق !!!

ربما هذه هي طبيعة الانسان، يتجاهل ويعمى خوفا من المواجهة.

انا لم أخف من المواجهة.

خفت من الفشل بعد هذا الانتظار الممتد. ان تتبعثر الآمال النضرة وتنتيس الأمنيات. أن تذبل الاحلام وتفقد معناها. أن تفقد الحياة رونقها وجاذبيتها. الحياة حلوة رغم كل المآسي والاحزان. ولكن هل تبقى الحياة حلوة بلا امنية بعد ان اهتديت اليها؟ بلا حلم؟ بلا امل؟ هل تبقى الحياة حلوة بلا أمينة؟

وضعت تعجلي جانبا وقلت لنفسي: " خطوة خطوة يتلاشى البعد واحوي عقب حياتي الاول .. تلفني ظلها .. وتلفها ظلالي، ونعيش ما تبقى من عمرنا سوية "

كلفت أحد اصدقائي العمال مهمة الاستفسار بشكل غير مباشر من والد امينة عن وضع ابنته أمينة.

عشت منتظرا الاخبار، قلقا متوجسا احيانا، وغاضبا بلا سبب، ومنرفزا احيانا اخرى.

لوهلة اقول لنفسي: " تلك الايام ولت بلا رجعة، وما كان لن يعود، فأنسى أمينة وابدا حياتك من جديد ". فيرد دافع قوي منطلق من أهاتي واحلامي: " ابدأ يا حازم. الصبر مفتاح الاماني، ولكل شيء اوان، والقلوب عند بعضها "

اتخيل جسدها البض النحاسي بين ذراعي والامواج تلمننا، تبرد حرارة اجسادنا. وصدرها مستكين فوق صدري. شعرها متناثر على وجهي. تنعفه الريح رغم رطوبته فاخطف قبلة من شفقتها. اكاد اشعر بطعم قبلتها الان. بحرارة عناقها. انا في كامل وعيي، ولكن حبي لها واحساسها لملامسة جسدها وعناقها متجذر في نفسي. متسلط على وعيي. كثيرا ما فتحت عيني وانا واهم اني غاف بين ذراعيها، رأسي مستكين كطفل فوق صدرها، بين نهديها. أخذ رحيق الحياة من عنقها، من انحدار الصدر المثير. لم اتمتع بمعانقة امرأة وتقيلها منذ فقدت أمينة. لم أشعر للعناق لذة ولا للقبلة معنى. كانت علاقتي نوعا من تفرغ السموم. أحيانا أكره نفسي لأنني أخونها. أتعذب فأغرق بالشرب. وكلما شربت أكثر كلما تجلت لي أمينة وكبر احساسها بها. كانت لا تغيب عن احلامي ابدأ. دائما معي في نومي. انها زوجتي حقيقة. ولكن بالحلم. فهل تنهزم احلامي؟!

بدأت أتوجس من الخبر المنتظر. انتظار الخبر عن أمينة مزقني. القلق والتناقض والحيرة سيطروا على نفسي. ويوم رأيت العامل الذي كلفته بالمهمة مقبلا لزيارتي كدت اغلق الباب على نفسي وارفض دخوله. ولكنني عجزت عن التصرف. لم أكن أقف بقدمي على الارض، انما على بساط هلامي يرتفع وينخفض، فارفع وانخفض واطرافي متثلجة. أكاد لا أشعر بها. اما حالتي النفسية فمتقلبة. لا اعرف كيف اصفها. ربما نوع من الموت. نوع من فقدان الكلي للحواس. من عدم القدرة على الادراك والتفكير. شطط تام!!

هل تعرف ماذا نقل لي ذلك العامل؟!

قال انه جر والدها للحديث عن بيته وعائلته. قال والدها ان ما يعذبه ابنة له، مجنونة ستقضي عليه بعنادها ورفضها الزواج، رغم كثرة المتقدمين ... ابنته ترفض كل من يتقدم اليها. حيرته في امرها. فهو شيخ يوغل بالكبر. ويخاف من الايام ان تغدر بابنته، فيغادر الدنيا وهي عانس. فتضيع وتتعذب. انه يضغط عليها لتقبل الزواج فتهدد بإيذاء نفسها. حتى والدتها ماتت غما من عناد أمينة. ماتت وفي قلبها حسرة على ابنتها، ووصية لزوجها ان لا يتركها على حالها ابدأ. انه يخاف من الايام وكلام الناس. راحة الوالد بزواج بناته. لو كانت ابنا لما اعاد عليها السؤال.

هدأت اعصابي ونفسي وغرقت براحة وفرح شاعرا ان أمينة عند اسمها.

صرت واثقا انها صانت حبنا كما صننته أنا. ولكني لم اصنه. !

هل تعتبر تصرفاتي خيانة؟! وكيف أقبل على نفسي ما لا أقبله عليها؟!

ولكن هذه مشكلة جانبية ذاتية عذبتني لفترة وعبرتها. سألت نفسي: " ترى هل تحبني أمينة حقا؟! لا يكفي ما اشعر به. ربما مشاعري نوع من الامنيات. هل رفضت خطابها بسبب استمرار واخلاصها لي، انا الحبيب الغائب. بسبب بقاء حبها لي؟! اخلاص متفان لا يعترف بالهزيمة؟! هل هي نسخة ثانية مني؟! تأمل ان اجيئها فارسا على فرس اصيلة؟ أخذها وانطلق للأفق للسعادة للفرح للحياة؟! "

انا أحب أمينة وقلبي مليء بالحب والامل ولا من مزيد.

هذا ما لا حاجة الى تكراره وتأكيده. غير أنى بقيت متوجسا من حقيقة موقفها مني بعد هذا الزمن الطويل؟! قلت لنفسى: " لعل البدايات تلتقي بالنهايات، ونعبر الحزن الى بقايا السعادة. لقد أبحر بنا العمر في بحر الزمن وحل عهد الملتقى والوصال، وأملى الوحيد ألا يكون رفضها للعمران حالة مطلقة تشملني أيضا. عندها لن اقبض حتى على الريح وبطيب الموت.

في تلك الفترة توفي والدي وأجلت مرة أخرى حلمي بلقاء أمينة. وبقيت انا وأخي لوحدها.

كرهت القدر الذي يبعد لحظات اللقاء بيننا. وبدأت أومن بالمكتوب. بالخرافات. ولكنني رفضت فكري من كل الشوائب. انا متفائل دوما حتى في أحلك اللحظات. ولم يغيب عني تفاؤلي رغم القهر الذي وقع من نصيبي.

تجدد الامل جعلني اشعر بالضرورة الماسة لامرأة أعطيها من عواظي سريرا، ومن حبي راحة تظللها كطفلة، وتعطيني رحيقا بشريا فاشعر بإنسانيتي، وتتجلى حبا وصبابة. وسوس لي فؤادي، وحلقت بي تخيلاتى. بدأت أفكر بأمينة كامرأة وأم وربة بيت وحببية. القى همومي بين يديها. امتلأت جوانحي بالسعادة المتخيلة. فأيقنت ان الواقع أجمل والحقائق أروع وأبلغ.

ومضت على حالي عدة أشهر. ربما سنة وانا متردد وجل. أكر وأدبر بلا قرار. كنت متوجسا من فرحي البالغ. جافلا من عاطفتي المتقدة. متخوفا من العاصفة المندفعة من اعماقي.

وفجأة وبلا سابق تفكير او تخطيط، استيقظت أحد الأيام وأنا مقرر ان أحمل تردددي ورهبتى وفرحي وأملى واواجه مصيري. فأما الموت واما الحياة.

ركبت الباص الى تل اببيب، ثم أخذت باصا من تل اببيب الى الرملة.

وصلت " للجيتو " العربي بدون صعوبة. فالاسم معروف لليهود كما هو معروف للعرب، وبقيت حيرتني من هذه التسمية، خاصة عندما يستعملها اليهود، ضحايا الغيتوات في اوروبا، غير ان دافعي الخاص، ذاتيتي، كانت اقوى من التفكير بمهازل الزمان.

دخلت حيا ترابيا تعلق الاوساخ والابنية المهدمة جانبية، اشارة باقية على العاصفة الهوجاء، وعلى المصير الذي صرنا اليه، برز واضحا التفتت والضياح والتشردم والتلاشي. من مدينة متطورة، ومركزا زراعي اساسيا الى جيت معزول. حرمنا من وطننا وحرماننا من ذاتنا. يبدو جليا ما يراد لنا من اكوام الاتربة والاوساخ التي لم تنظف رغم مضى عقدين من الاعوام، ولكنى جننت بمهمة اخرى، فما بالى أحمل نفسي فوق طاقتها؟ لأنسى نفسي الفلقة وشجونى وأحزاني؟! هل أنسى أمينة وأغرق في تأملاتي عن مصيرنا البائس وحظنا العاثر؟!!

رأيت نفسي في بحر مائج متمسكا بقشة عائمة يدفعها الموج، فازداد امساكا والتصاقا بها خوفا من الغرق. وأنا الذي أحسن العوم ولو في وسط المحيط. فاضطربت وارتج على الامر.

هل صرنا حقا بلا وطن؟! نعيش فيه وليس لنا؟! فقدت أمينة وفقدت الوطن؟!!

شدتني أحزاني فسالت نفسي: " أمينة قد تعود لي. ولكن كيف يعود الوطن؟!!"

وقفت في باب احدى البقالات أشرب زجاجة شراب أرطب بها حلقي من حرارة الطقس وكأبة الافكار وقبض الحزن والغضب الدفين في اعماقي. كان ذهني يزدهم دوما بأفكار عديدة جديدة ومتجددة. تمنيت فراق الخواطر ليخلو فكري لأمينة، استعدادا للحظة العمر الكبرى. لحظة انتهاء الانتظار الممتد الطويل. لحظة التخلي والصعود. فافهم ما لم افهمه واعرف ما لا اعرفه. نعود انا وأمينة الى جذور الاشياء وبدايات الاحداث. ننسى عذاب الماضي ونعيش لحظتنا باتساعها.

عندما القاها لن أفقدها ثانية!

ولكن كيف سنتلقاني؟!

أقلقتني هذا السؤال واصابني شطط. تهت وراء مبتدأ افكاري، وتاهت افكاري وراء توقعاتي.

من انا؟ ماذا اريد؟ هل ينتهي الحلم الجميل؟ يتبدد الامل؟ تنتثر الاحلام اشلاء؟ أهوى من العلياء؟ يتحول الفرح الموعود الى ترح؟ وينقلب الضحك الى بكاء؟ تنتحر السعادة ويسود شقاء. تتلاشى الامنيات التي اينعت؟!

تنبهت له يرفع كأسه لشفتيه. شربنا. تنهد بعمق شديد وكأنه يروي لي مجددا ما يعبر برأسي من ذكريات عنه. حتى خيل لي أنى أسمع تأوهاتة وليس تنهده العميق. ربما يعيش معي ما يعبر بذهني من صور وذكريات تخصه. تأملته فما وجدت تغييرا يذكر على محياه. هدوء متواصل ونظرات من عالم متجلد.

طلب كأسين آخرين وهو يحثني على الشرب. فجأة لمعت عيناه وسلط نظراته بوجهي، فارتعشت. وسألني متذكرا أحد الاصدقاء:

هل تزوج سهيل؟! -

- ورزق بطفلة . أجبت

- وذقنه؟! -

- لا تزال علامة مميزة .

- تسعدني اخباره .

- نلقاه الليلة .

لم أكن واثقا مما قلت. لم يجب. كنت متوقعا ان يسأل عن الاصدقاء بالتفاصيل، فشحذت ذهني لأتذكر ما جرى معهم. فلم أجد كثيرا مما يقال. عاد يغرق بذاته وكأسه، فازداد يقيني من غرابة موقعي، واشتد اندهالي من حال صاحبي. ربما لوهلة فهمت ما يقصده بان أمينة زوجته منذ أحبها. انها زوجة أحلامه، يعيش معها وهو في عالم الكرى. أيجوز ان يكون ظهوره حلما كظهور أمينة الدائم له؟!

ولكني متيقظ لما حولي ولما يجري معي!!؟!

لم يعرف حازم مدى استعداد امينة لملاقاته، وان كان هذا اللقاء بعد هذه السنين الطويلة، سيحمل لها السعادة ام الحزن. كان يطمئن نفسه بان السعادة والحزن هما وجهان لعملة واحدة، لا يكتمل الفرح الا باندماجهما، ولا يكتمل الانسان الا بالفريقين، فطمئن روحه ويقول لنفسه: " كيف سألقاها؟ ماذا تغير بها؟! هل ترك عليها الزمن الرديء أثره؟ هل يخذلني الزمن بعد هذا الصبر الطويل؟"

انه مكلوم وخائف وحزين وحائر. ولكنه مندفع كالعاصفة بقرار لا تردد بعده. يمني النفس بانشرح بعد ضيق، ولقاء بعد فراق، وعناق بعد سعي. يتمنى ان يرى شعرها مرسلا على ظهرها كشلال ينهمر من عل. يتمنى ان يرى بشرتها السمراء النقية ... ولكن لا بحر هنا ليلوح بشرتها ببريق نحاسي. يتمنى ان يرى وجهها بطبيته

ورونقه وجاذبيته. هل تكون السنون قد ابتزت شيئا من جاذبيتها واكتمالها؟ كم يشتاق لعينيها بلمعتهما ويقظتهما. وكان يقول:

- صرت استنشق الشوق من قربي لبيت أمينة .. ومع ذلك بقيت أتأرجح بين الحزن والفرح. بين الأمل والكآبة. بدأت أشعر بالتوتر من اقتراب اللحظة، التي صار اللحم فيها قريبا للواقع، واللقاء حقيقة قريبة التجسد.

سألت البقال عن بيت والد امينة مضييفا تعريف التركي لوالدها. ويبدو ان صفة التركي هي التي اوضحت له مرادي. فشرح لي كيفية الوصول للبيت، متفاجئا أني بمثل هذا القرب الى بيتها. ..

ها أنا ظمآن وواصل النبع برمقه الاخير. هكذا كانت حالتي. ووجدت نفسي اخاطب أمينة. أهمس بأذنها: " نلتقي كي لا نفترق". هتفت باسمها بيني وبين نفسي. ربما يكون الحر اللاهب من قربي لها أثر على تماكي لنفسي؟ ربما يكون لهيب الذكريات يعيدني شابا يافعا اعانقها بين الامواج؟ مرة أخرى يعتريني التردد من الاقدام. قلت لنفسي: " تجلد. رغبتك لم تعد ملكك. انتظرتك بأمانة فكيف تهرب منها بعد ان صرت قاب قوسين أو أدنى من لقائها؟ .

كان توجسي من شيء غير مدرك يشتد. ولكن عاطفتي بدأت تدفعني نحو التئام الجمع واكتمال الوصل. وكنت أهتف بيني وبين نفسي مع كل خطوة: " انا احبك يا أمينة !! " أنشري فرحك كما تشائين. عريسك قادم بعد ان أعياه وأعياك الضياع. لن تقوى علينا عواصف التشريد. سنلتقي يا أمينة. عبرنا طرقا وعرة. خضنا مسالك رهيبة. ما عبر علينا لن ننساه. سنورثه لأبنائنا مع مزيد من الحب والامل بدنيا أفضل وحياة أكمل خالية من البغضاء والكراهية.

لأول مرة لا أرى قيمة لوجودي دون وصالها. عفت الصبر والانتظار والاحلام. الوصال هو جذر الحياة الذي لا ينضب. ألم يكن أفضل لو بعثت خبرا انبئها بقدومي حتى لا افاجئها بوضع غير متوقع؟! وبنفس الوقت كنت اقول: " سبق السيف العذل. انا لا آتي لأفحصها، لأتعرّف عليها، انما لأجدد ما انقطع. وأطلق الآمال من قيودها، والرغبات من سجنها ".

وها انا أقف أخيرا امام بوابة بيتهم. لا تزال تتبادلني الاحاسيس بين الخشية على الاقدام والاندفاع. هذه النقائص مرهقة. أكرهها .. أرى البعد والجفاء .. ولوهلة اخرى أرى انفجار الحزن وزغرودة السعادة وانطلاق العصفير من اقفاسها. أرى الوجد والوئام، وكأن الزمن لم يفصل بيننا شابا وجمعنا على أبواب الكهولة.

كيف اطرق الباب؟ اي اعصاب احتاجها عندما تفتحه لي أمينة؟ شعوري يوحي لي ان أمينة هي التي ستفتح الباب؟ أه ما أثقل يدي. كأنه الإخدرار يسري في أطراف يدي. أشد قبضتي بقوة. أتنفس بعمق مألئا رثتي بالكثير من الأوكسجين. بعد لحظات تلتقي عيناى بعينيها. تتناجى بعد سنوات الانقطاع. تلتقي انفاشنا الراعسة. تتشابهك امانينا. ينتهي دور الكلام ويسود التفاهم والتناغم بدون لغة. التقاء نظراتنا يغنيننا عن الكلام.

وتقترب لحظة المفاجأة التي لا تخطر على بال. أردت أن أصرخ بأعلى صوتي مناديا: " أمينة !! ". ها انا وصلت بعد سفر. انتصرت على الفراق والزمن. كنت غريبا في بلدي ضائعا في وطني. الان بدأت أجد نفسي !! صار لي وطن بك يا أمينة. عدت بعد تيه. أرفض الهزيمة. اريد الحياة. اريد ان استعيد الماضي معك. ان اجدد ما انقطع. ان أعود الى يافا شابا عاشقا يختبئ مع حبيبته وراء تلة رملية. يقبل أحلى شفيتين. طعمتهما لم تفارق شفتي رغم الزمن. أقبل الشوارع التي عشقتها. وألتقي بالناس. أتنشق رائحة السمك المقلي في باحة الدار. أرى وجه امي. وجه ابي. وجهك الناضر مثل زهرة القرنفل. الامس يدك خفية من أمك. أه ما أحلى الذكريات. أه كم هي مؤلمة.

قرعت الباب بقوة وتصميم. ربما للتخلص من ارتباكي وترددي. ومن ضغط الذكريات التي تأخذني بعيدا تحت جناحيها. كنت انا ولست انا. لم أكن مدركا لمشاعري .. بل سابحا لا أحس بالأرض تحت قدمي. مرتجفا. رأسي

مخلق في الفضاء وقدماي غارقتان في البحر. تتكاثر الأحداث في راسي وتختلط. يمتلئ ذهني بالصور والتخيلات. تتراكم أمنيائي. أحن الى بيتي القديم. أحن الى حارتنا. أحن الى ملعب طفولتي وصباي. حنين فجائي يكاد يسحب الدمع من عيني سحبا. أحن لزمن الصباية والعشق الأول والأخير. أحن للبحر والشمس والبشرة النحاسية اللامعة. أحن للشعر الأسود الطويل المتحرر للريح. أعرف الملامح ولم انس تفاصيل الوجه. استجمع كافة قواي لانطلاقة عظيمة. فأطرق الباب بقوة مرة وراء أخرى. اه يا منية القلب ويا مهجة الروح. وقفت ودققت طويلا. شعرت بالضيق والارهاق الفجائي.

أين أنت يا أمينة؟!

ادق ولا من مجيب.

اه على لحظة خلو وتوحد النقط فيها انفاسي وأحوي مشاعري. دققت ودققت ووقعت في حيرة. بدأت ناري تخبو وأعصابي تنتقل للقلق والتوتر. عدت أشعر برأسي بين كتفي ثقيل متفجرا بالألم. النقط انفاسي بصعوبة، وشعور أليم في صدري يعذبني. أمسكتني الحيرة والتوجس. كان قلبي ينشقق. دققت دققت دققت وكتمت تهيجي. تلفت حولي فلمحت احدى الجارات. استنجدت بها محاولا ان أبدو طبيعيا:

- من فضلك .. عن اذنك. هنا بيت التركي؟ والد امينة؟ اجل؟ شكرا. وأين هم؟ لم لا أحد بالبيت؟

تنظر الي الجارة بتوجس. ربما يبدو القلق والانهمام في وجهي.

- من حضرتك؟!

ماذا اقول لها؟! كيف اعرف على نفسي؟ اي كلمات استعمل؟!

- انا قريبا.. كنا جيران في يافا من زمان. انقطعنا عن بعض. فرقت بيننا الطرق. لم نعرف عنهم شيئا الا منذ ايام. جئت للاطمئنان عليهم ومعرفة اخبارهم.

سكنت الجارة. بلعت ريقها. ارتبكت. لم تتوقع هذا الزائر الغريب. قالت بدمائة وهي تخفي ارتباكها لأمر لا افهمه:

- تفضل عندنا ... تفضل ارتاح. ربما يأتي والدها بعد ساعة. لا أدري تماما متى يعود. على كل حال تفضل حتى يحضر.

- أمينة ابنته.. أين أمينة؟! أليست أمينة ابنته؟

سألت بلا ترو فاضحا كما يبدو ما بنفسي.

- أمينة؟!

أجابت الجارة بحيرة وتردد. وجهها يعبر عن الحزن والارتباك. هل أخطأت بالمنزل؟ صمتت. فحثتها. بعد تردد اجابت:

- مسكينة .. لا اعرف كيف اقول لك ذلك. حرقت نفسها من الهم.

- حرقت نفسها؟!

كدت اصرخ مصعوقا مذهولا ولكني لم أجد صوتي. انحبس الكلام من الدهول والصدمة. فأردفت بسرعة:

- انها بخير .. أمينة بخير، ستعيش، أنقذت والحمدلله، يقول والدها انها ستكون بخير !!

غرقت بالعرق البارد من راسي حتى قدمي. فقدت توازني. ولم أعد أشعر بالأرض تحت قدمي. كنت مذهولا مصعوقا افهم بصعوبة ما يدور حولي. انهرت بلا شعور جالسا على عتبة الباب واضعا رأسي بين يدي. مانعا دموعي من الانهيار. وصوت الجارة يكرر دعوته لي بالدخول والانتظار في بيتها. آه لو تعلم ما بنفسي. آه لو تعلم ما يربطني بأمينة. لم أشعر بمثل هذا الضياع منذ تشردت عن مدينتي. منذ انقطعت عن بحري. منذ فرقت بيننا المأساة.

ما تشتهييه النفس يتبدد وما يتمناه الفؤاد يتلاشى. اه ما اشد وقعتي ويأسي. تمنيت ان أصرخ صراخا طويلا متواصلًا. ان اوذي نفسي لأشعر بالألم. أن أبكي بحرقة وبلا حياء. أن أرى أمينة لأضمها لصدري طالبا صفحا. أنا أحبك يا أمينة. الآن أنا أحبك أكثر. مهما تكونين أحبك. أنا مسؤول عما يحدث لك. أنا السبب وأنا المسبب. لو أنى ابكرت في القدم لأنقذتك. سنوات وأنا أتردد. هذا زمن رديء ووعر المسالك. أين أذهب بهمي وصدمتي؟!

أحضرت لي الجارة كأس ماء متفاجئة من منظري. شكرتها وقلت لها أن تسلم على والد أمينة وتخبره ان الذي حضر هو فلان، وذكرت اسم جار لنا ولهم من يافا قبل النكبة. ولملمت نفسي وألمي وهمومي وقلقت راجعا للناصره، هاربا ولست بالهارب، حاضرا ولست بالحاضر، يائسا من عالمي ودنياي، فاقدًا رغبتني بالحياة، فعزلت نفسي لأيام صائما عن الطعام، منقطعا عن الناس، حتى تراءت لي أمينة في احدى الليالي باكية من وحدتها، فبكيك بكاء مرا. وعندما استعدت بعض توازني، وصحوت من صدمتي. نظرت لوجهي بالمرآة. فهالني ما ارى. استحممت. حلقت ذقني. أكلت قليلا من الطعام، وقلت كأنى أخبرها:

- لن أتخلى عنك يا أمينة !!

فيما بعد لمت نفسي لأنني هربت من مواجهتها. من مد يد الحب والعطف لها في لحظات محنتها، لحظات هي أحوج ما تكون بها الى قلب محب، وعاطفة تحضنها. ربما خفت ان يفهم موقفي كنوع من الشفقة، او ربما رفضت ان أرى جسمها مشوها. اريد ان احافظ على صورتها كما هي؟ أحبها أحبها كاملة. أحبها مشوهة. أحب أمينة كما تكون. لماذا ضعفت أمام مأساتها؟ لماذا عجزت عن مواجهتها في عاهتها؟ انها عاهتي وليست عاهتها. هل أستطيع التفكير بغيرها من النساء؟

كنا قد وصلنا مدخل الناصرة الشمالي حين وصل بروايته الى هذا المقطع. فصمت متداخلا بنفسه متفوقعا بأفكاره، لا أكاد اسمع صوت تنفسه. أشعر بوجوده قربي من دخان سيجارته. فأثرت الصمت خوفا من تعكير صفو تأملاته، او بكائه الصامت. ولم أجد ما يحسن قوله ويطيب ذكره في مثل هذه الحالة. فتألمت لنصيبيه العائر شاعرا بما يعذبه ويكويه بنار الهجر .. ناقما على واقعنا اللعين .. متمنيا لو أستطيع اسداء المعونة لصاحبي وهو في محنته المستمرة، وسفرته غير المنتهية في الشتات النفسي بعد شتات الوطن. الآن يبدو لي مستسلما لقدره. لا يحيا حياته بمفهوم الحياة الواسع، انما ينتظر انقضاء ما تبقى من عمر شقي مغرقا المه وثورة نفسه بكؤوس الخمرة !! ولكن ما ألمني ان حازما لم ينس حبه أبدا، وظل مخلصا للتي أحبها !!

صب لي كاسا أخرى رافضا اصراري على الاكتفاء بما شربت.

قلت:

- لا افهم كيف صارت أمينة زوجتك؟!

ضحك بلا صوت، وبوجهه الذي لا يعكس ما يعتمل بنفسه، وقال مؤكدا:

- دائما كانت زوجتي !!

تذكرت حكايته القديمة لي يوم ذكر انها لا تفارق احلامه، وانه يعيش معها بأحلامه كرجل وامرأة متزوجين. قلت لنفسي: " لعل ما يعتريني هو حلم مشترك لي وله؟ أيجوز هذا في الواقع؟" .

أردت أن أبين له خطأه. ولكني توجست أن أكون مخطئا فعلا. غير أن ثقتي بنفسي أكيدة. فهو لم يتزوج أمينة.. فمن أين اصراره انها كانت زوجته دائما؟! الا إذا كان يقصد احلامه؟!

بحثت عن موضوع لأخرج من صمتي واخرجه من صمته، سألته:

- هل التقيت بأحد الأصحاب غيري؟

- انت اولهم .

لا حرارة ولا مميزات خاصة في نبرته.

- هل ابلغهم بعودتك؟

- بالطبع .

- تود ان نلتقي في مكان ما؟

- كما تشاؤون .

اقلقتني للغاية اجوبته المقتضبة كأنه يتكلم دون ان يعي ما يقول، وبدأت أشعر أنى أفضل في اخراجه من صمته وبرودة عواطفه.

- هل نلتقي هذا المساء؟!

نظر الي ولم يجب. وسرح بأفكاره، ولكن لا يبدو انه يفكر. مجرد صامت. ربما لا يتنفس؟!

بعد سنين طويلة من معرفتي وصحبتني لحازم وقع من نصيبي ان اتعرف على فتاة من الرملة وانزوجها. كانت قصة حازم وأمينة قد صارت في عهدة التاريخ القديم. لا أذكر ان حازم عاد اليها مرة اخرى. وقد تجاهلت أنا موضوعها حتى لا اسبب له الما وحزنا ولوعة يحبسها في نفسه، ودموع يزرها أمامنا بمرح ظاهر. لكنه لم يعد يخدعني بحقيقة مشاعره التي يخفيها عني وعن أصحابنا. كثيرا ما اردت ان أحته لزيارة أمينة وتجديد الروابط معها. رغم ما حصل لها كنت مقتنعا من استحالة دفعه للتفكير بالزواج من فتاة غيرها.

وكثيرا ما سألت نفسي: " لماذا لا يعود اليها وهي في محنتها؟ هو ايضا في محنة. هي حرقت جسمها وهو يحرق جوفه...يحرق ايامه، ويحرق أحلامه.

كنت مقتنعا ومتحمسا لكي يعود اليها ليأخذ بيدها وتأخذ بيده. ليخرجها وتخرجه من ضياعهما ومحنتهما. فقط أمينة قادرة أن تخرجه من ألمه وكآبته. تستأنس به ويستأنس بها. الم يصارحني انه يحبها كما هي ويصر على العودة اليها؟ لماذا لم يعد؟ لماذا يقرر ويتردد؟ لماذا يستسلم للحزن والذكريات؟

احترت بين ان أقدم او أتمله. ربما هناك شيء ما لم يحدثني به؟ سرا يحفظه لنفسه؟ وأثرت ان لا أتطفل عليه حتى لا يسيء فهمي منتظرا لحظة مناسبة.

أصبحت الرملة محورا اخر من محاور حياتي. كثر ترددي على هذه المدينة التي حررت من ابنائها الطبيين، فصارت نموذجا للعاصفة التي اقتلعت شعبنا من جذوره، وحوالته من صاحب البيت الى فاقده. كنت أتذكر وصف حازم للشوارع التي يسكنها العرب والمسماة ب: " الجيتو العربي". لم أجد بعد سنوات من حكاية حازم شيئا قد تغير. ربما ساءت الأبنية أكثر. كانت الشوارع الترابية مميزا " للجيتو"، كأنه معسكر لاجئين، بينما الأحياء اليهودية التي بنيت على البيارات العربية المقتلعة، منظمة بأبنيتها وشوارعها الحديثة وخدماتها وحدائقها وملاعب الاولاد والمدارس والعيادات الطبية والنوادي. كنت كلما دخلت " الجيتو" تذكرت حازم وحاولت تصور صدمته. وكلما تذكرت حازم تقفز الى ذهني صور من " الجيتو" بشوارع الترابية وابنيته المهملة والاساخ المتعالية على جانبي الطرق وبين البيوت. والأطفال يلعبون بوسط اكوام من الأوساخ. وانتشار الجرادين الضخمة التي تقاسم السكان العرب أحيائهم.

في احدى الأمسيات، وانا في بيت والدي زوجتي في الرملة، قفزت حكاية التركي وابنته أمينة براسي. تعجبت كيف لم أسأل عن أمينة ووالدها منذ خطبت. ربما لم أخذ حكاية حازم بجدية. ربما اعتقدت انه يبالغ في وصف علاقته بأمينة ليغطي على نقص ما عنده؟! وفي الحقيقة كنت قد قررت تجاهل موضوع أمينة ووالدها. قلت ما دخلي في قضايا الناس الشخصية؟ إذا كان حازم يريد. فهو ليس صغيرا. يستطيع ان يصل اليها. او يطلب المساعدة. ولن أرده خائبا.

ولكن حازم صديقي .. ودوافع ملعونة تصر على ابقاء الموضوع حيا في ذهني. تفقدني هدوء نفسي . حاولت التناسي فتوهجت حكاية حازم وأمينة في فكري. عبثا أحاول تناسي الموضوع. لكنه كان يحتل على كل مسارب تفكيري. قلت لنفسي مهونا الامر: " لعلها الطبيعة الحشرية للكاتب. لا يستطيع ان يبقي حكاية بلا اكتمال وخبرا بلا تفصيل ورؤية بلا تأويل".

ايقنت ان أوان معرفتي للجانب الاخر قد حان، فخضعت بلا موارد لميول نفسي واستسلمت لطبيعتي الحشرية. سألت والدي زوجتي ان كانا يعرفان تركيا يافوي الاصل ابنته اسمها أمينة أحرقت نفسها منذ سنوات.

- بالطبع نعرفها .. من اين تعرفها؟!!

- لا اعرفها.. اعرف حكايتها؟!!

- حكايتها؟!!

وشرحت الحكاية باختصار شديد.

- فتاة ممتازة .. نشيطة. تشتغل بالخياطة وتعيد والدها. خرفان وهابط.

- وهي؟!!

- مالها؟!!

- حرقت نفسها كما سمعت؟!!

- شيء بسيط .. أنقذوها وربك ستر. كانوا جيراننا "بالجيتو". ماتت امها واراد والدها ان يزوجها بالقوة فصبت زجاجة كاز على نفسها واشعلت النار. انتبهت الجارة ففزعت الشباب بلحظات. وأطفأوا النار. احترق شعرها ولكنه نما جميلا كما كان. اعتقد ان رقبتها تأثرت أكثر شيء. لذا ترتدي دائما قبة عالية. على حد علمي انها سليمة تماما.

- هل تتزوج صاحبها اذا عاد لها؟!!

- والله العلم عند الله وعندها .. ولكنها ترفض الزواج كما شاع عنها في الجيتو.

ودبت الحماسة في نفسي. وقررت ان أقوم بدور الخاطبة. عل الوصال يكتمل بين محبين بعثرتهما النكبة. لعلني بذلك اداوي جرحا من الجروح. إذا تحقق الأمر على يدي اكون بذلك قد اجزيت خيرا على صعيدين. احقق لصاحبي امنياته. واحقق لنفسي ما لا تستطع التخلي عنه من اكمال للأحداث وتبيان النهايات.

وفردت شباكي !!

اخذت رشفة كبيرة من كاسي. سألته متأملا ان أستطيع اخيرا اخراجه من جموده اللابشري:

- هل تذكر زيارتنا للرملة؟!

لمعت عيناه وبرقتا وكأنه يعود من اعماق الزمن. أأكون قد نجحت أخيرا في لفت اهتمامه؟

وهل ينسى ذلك اليوم؟ بصحتك ... -

- تلك اللحظات ولت !

- أمر مؤسف .

- هل تتذكر التفاصيل؟!

- تحقق كل شيء متأخرا

- على حد يقيني لم يتحقق شيء .

ضحك بنشوة، ودعاني للشرب. كان يشرب بسرعة ظمئ.

شربت ما تبقى من خمرة في الكأس فأصر ان يسقيني المزيد، وان لا اتركه وحيدا. واصلت مشاربه مترددا في البداية. ولكن نجاحي بسحبه للحديث شجعني على مواصلة الشرب ومواصلة الحديث.

لم افهم اصراره انه تزوج من أمينة. بات واضحا الان انه يعني الزواج الفعلي وليس الحلم او الأمنية. وانا على يقين انه لم يتزوجها. ربما يدمج من شدة وحدته بين الواقع والحلم؟ او يكون قد فقد جزء من وعيه فاختلط عليه؟ او يكون حدث شيء لذاكرتي انا؟!

- كيف تزوجت أمينة؟!

- كما يتزوج الناس ...

انه يصر ولا يتردد. ما أغربك يا صاحبي. ما أغرب اصرارك. سألته ساخرا:

- وكيف حالها؟!

- لا أدري . لم أرها منذ زمن طويل.

أسقط في يدي. ما باله يتكلم بلا منطق؟!

- لا تزال زوجتك؟!

- أجل !!

هل حقا هذا حازم؟! يقيني يؤكد لي غرابة حازم وعدم اتزانة. كلامه غير غامض ولكن فيه مفارقات غريبة. كله غريب هذا الانسان الذي كان صاحبي. لقد تألق وابتهج عندما ذكرته بأمينه، حتى أنى اكاد المح بعض الحيوية تدب بوجنتيه.

قلت لنفسى: " أجرب مرة اخرى ان ادمجه بالحديث. لعل ذلك يعيده الى اتزانة "

- هل تذكر لقاءك الاول معها في الرملة؟! -

قال متذكرا:

- سافرنا الى قريب زوجتك. ربما عمها، جار أمينة، هل تذكر؟! سهرنا عنده حتى الصباح. يا لها من ليلة لا تنسى. هل تذكر ماذا شربنا؟! سألنا ان كنا نريد كأس عرق. فلدیه زجاجة عرق يونانية "اوزو" قلت له نجرب، نفحص طعمها، وضعها أمامنا، ففحصناها، بقينا نفحص حتى خوت.

وضحك بمرح. شعرت انه يعود لأصوله. وبدأت أيقن ان السعادة لا تخرب بيتها. استمر يحدث:

- قال لنا عم زوجتك ان لديه قنينة " اوزو " من نوع اخر .. قلت له حسنا نفحص الأخرى. يا سلام على " الاوزو ". شربنا الثانية، ولو كانت لديه ثلاثة ورابعه لبقينا نفحص ونفحص ونفحص.

قهقهه سعيدا بصوت مرتفع:

- اشرب

شربنا. كنت دهشا لتجاهله اهم موضوع بالحدث. هل يهرب من ذكراها؟ عدت أساله قلقا:

- هذا ما تذكره فقط من مشوارنا؟! -

لم تغادر الابتسامة وجهه، ولكن بعض الألم تجلى على محياه.

- اذكر بالطبع .. دعا امينة. كانت قد علمت منك أنى اود طلب يدها. جاءت خجلي مرتبكة من لقائي، ولكن الشوق يزغرد من عينيها. لن اقول كيف شعرت انا لحظتها. انت كنت حاضرا .. ولكنك لم تر ما في داخلي، لم يشعر أحد بما يجري معي. نار تفجرت واشعلتني. تجليت معها وايقنت انها باقية على حبي. صانت نفسها وحبها. كانت أمينة أسما ومسمى. عصرت قبضتي يدي ندما على الزمن الضائع. نعمت بمسامرتها ونعمت بمسامرتي. سلام على الطل والندى. سلام على الوجد والعشق. سلام على الحب والوصال، ووداعا يا زمن الهجر القاسي. ووداعا يا زمن الألم الرابض. ووداعا يا زمن الضياع والتردد. ها هو المتشرد يعود الى حبيبه. ها هو المتشرد يستقر بعد ضياع. ها هو المتشرد يجدد ما مضى. يعود الى يافا، الى حبه الأول والأخير، الى بحره، الى رائحة وطنه. الى قبلات الحب الاولى، الى ارتعاشه القلب التي لا تمحى مع الزمن. ها انا استعيد ذاتي من بين أنقاض حياتي ومدينتي ووطني. أخرج من ضياعي وتيهي بفرح يكفي كل الازمان، باندفاع لا يعرف التوقف ولا التمهل !!

استعدنا في جلستنا تلك تفاصيل حياتنا. تحدثنا عن حبنا الذي كان. تحدثنا عن ألمنا وشتاتنا. عن مدينتنا التي أصبحت غريبة. عن مدينتنا بشوارعها وأهلها. عن الانقطاع الكئيب والوحدة القاهرة. عن الألم والقهر الذي لا يحويه الزمن.

استعرضنا بعطف أسماء سكان حارتنا ونواديرهم ومفاراتهم. تحدثنا عن نوادر البحارة والبحر. كنت أشعر انني شاب يافع في يافا. وكانت تشعر انها صبية منطلقة في يافا. أبدا لم تغادر يافا بأحاسيسنا. حدثتني انها غير مصدقة

انها في الرملة ... بل نحن في يافا. هذه حارتنا، وها هو بيتنا هناك. وهذا بحرنا ورماله، وهذه قوارب الصيادين وشباكهم. هذه امي وتلك امها، ترتشفان القهوة. وهناك والدي ووالدها يتبادلان تدخين الأرجلة. ها نحن نلتقي على الشاطئ. نختفي وراء تلة رملية. تتشابك ايدينا تلتقي صدورنا. نتخاطف القبل وجلين مرتعشين. أضمرها لصدري بألف حجة وتبرير. تتملص. فأزيد ضغطي حتى تستسلم. أشم رائحة شعرها الأسود المنطلق من اساره. ألمس بشرتها الفتية النحاسية المحروقة. تتوهج الحرارة في نفسي. أزر دمعه كادت ان تفضح ضعفي. نتملى من وجوه بعض بظماً لا يعرف الارتواء. نتأمل بعض بحنين جارف. نتمنى لو يخلو لنا الجو. نتوحد. أكثر من عشرين عاما أبعدنا الفراق، وها هو يلما زمن عجيب. يجمعنا قبل اليأس. كنا في الرملة ومشاعرنا في يافا. جلسنا في بيت عم زوجتك ووجداننا يقول اننا في حارتنا، في دارنا. لا أعرف كيف أفسر ذلك. كنا نظن اننا إذا أطللنا من الشباك سنرى البحر والصيادين وقوارب الصيد والشباك المنشورة، بل نكاد نسمع بشيش الأمواج المتواصل. حبنا ليس وليد اللقاء الأنى. حبنا لا يعرف نهاية لا بداية له، ولا بد ان تكون له نهاية رومانسية. عاشت الرومانسية !!

أنت أسرعت تسابقتني على فنيينة (الأوزو). أغفر لك ذلك يا صاحبي. أغفر لك بسبب أمينه. أمينة أنستني حتى نفسي. كيف؟ أنسى أمينة؟! حبييتي. حبيبة شبابي الباكر. حبي الاول والأخير والدائم.

- اشرب .. اشرب!!

لأول مرة لمست تماما انه يدفن ماسي نفسه بالكأس. يحجب آلامه بالكأس. بالخمير.

- وهل تذكر ما حدث؟! -

- بالطبع ... وهل أنسى أمينه؟! عدت للناصره لأخبر الأهل أنى وصلت لمرامي، وسأعود لحبيبة يافا. سأعود لحينا المهذوم وابنيه. اعليه. اعيد يافا عروسا. أمسح دموعها المتجلدة. اقبلها. اراقصها. أحضنها في ليلة زفافي. واعاشرها ... عليها تخصب من جديد. ولن تغار أمينه. اشرب!! هذا الشرب السريع يضايقني، ولكني صبرت املا بمساعدة صاحبي على العودة بفكرة للواقع. ان يستعيد وعيه المفقود.

صمت، وأثار دمعيتين بلوريتين تراوغان قدرته على ضبط مشاعره. قال بعد برهة:

- ماتت أمينه يا نبيل. ماتت بعد اسبوعين من لقائنا. قتلها المرض. كذبة كبيرة كانت. كأنها رفضت أن تكون لي بلا يافا. قد تعود لي إذا عادت يافا ... ستتجدد مع يافا... التقيتها بكامل صحتها. مكتملة الانوثة. ناضجة. حارة. حميمة... يقتلها الشوق لفارسها، وقد بان الفارس. ولكن الموت كان منتظرا. قدرها ان لا تعرف السعادة أبدا، وقدرتي أن أبقى من الراحلين أبدا. ليس لي استقرار ولا أمان في مكان. فقدت حبييتي وفقدت ما يشدني للحياة. لماذا أحيا ما دام حلمي تبتد؟ بعد لقائنا تموت أمينه؟! ماذا جنيت حتى اصدم عبر درب حياتي كلها؟ من يصدق ان أمينة تموت بعد اسبوعين من تجدد الأمل؟! من يصدق ان الموت يجيء حين لم تعد ضرورة له؟ وحين يفترقه المرء لا يجده !!

أفرغ كاسا كاملة بجوفه و اشار للساقى ان يملأ له المزيد. قلت:

- وانت يا صاحبي ؟ الم نودعك بعدها بشهرين ؟!

وأضفت:

- لا زلت اذكر جنازتك حتى اليوم .. كل الذين كرهتهم جاءوا. لم تتعرف عليهم في حياتك فتولوا امرك في مماتك. اما نحن اصحابك فسرنا كالغرباء. كنا نشيع جزءا منا. كان الحزن حزننا والفقيد فقيدنا.

- لا ادري عن ذلك شيئا ؟!

- كيف تدري وانت الفقيد؟!

- ولكنني امامك !!

- موتك كان صدمة لنا نحن اصحابك ...

انقلب وجهه غاضبا وامرني:

- اصمت .. !! اي موت تتحدث عنه؟! .! أنى حي كما ترى؟!

- انت حي؟!

- بالضبط !!

- وتصر ان امينة كانت زوجتك؟!

- تماما.

- لم تمت امينة؟! ولم تمت انت؟!

- زوجتي لم تمت وانا لم امت !!

- لا تتفعل يا صاحبي لا تتفعل .. انت تحيرني؟ عودتك محيرة. وظهورك لي محير !! كلامك محير !! ما الذي اعادك لعالمنا؟ اية قوة هذه؟! هل حقا يعود الأموات الى الحياة؟!

- الموت مرة اخرى؟!

انفجر غاضبا بشراسة حين عدت اذكر الموت. اغضبه اصراري على ذكر الموت. لم اره غاضبا أبدا بهذا الشكل. فتحت فمي لأهدئ أعصابه. فأمسك كأسه بقبضته وقذفها بوجهي وعيناه تطلقان شرارا. اغمضت عيني جافلا من ضربته الفجائية، رافعا يدي تلقائيا لتلقي الضربة. فأخطأ بضربته كما يبدو ... فتحت عيني متحفزا لمواجهة غضبه. فلم اجده امامي. أمسكتني حيرة شديدة. مددت يدي قلعا لأشعل الضوء. فتحت عيني. صحت. اخذت نفسا طويلا. ابتسمت، اطفأت الضوء، وعدت أغفو من جديد وصوت حازم يصل لاذني مناديا:

- أمينة !!

تمت

nabiloudeh@gmail.com